رسائل اللافندر

الكاتبة : أميمة عبد العزيز
التدقيق اللغوي : الحسن محمد
الإخراج الفني : هند محمود
مصممة الغلاف : دينا الشعراوي
رقم الإيداع : 2020/20058
الترقيم الدولي : 978-977-6689-62-6

٩ شارع مسجد المغفرة المتفرع من شارع العشرين

بجوار مدارس حسام الدين الخاصة، فيصل، الجيزة

01061813345 - 01126026691 - 01009823984

رسائل اللافندر

مجموعة قصصية

أميمة عبد العزيز

إهداء

إلى أول من علمني معنى الحب روح أمي وأبي..

إلى أرواح العاشقين في كل زمان..

إلى الهاربين بعشقهم من الاغتراب إلى الوطن..

سلام عليهم وعلى الأمكنة التي استوطنوها..

المقدمة

تمر الدقائق والساعات تارة سريعة، تختفي كورقة شجر في ريح شتوية، وتارة بطيئة مثل ليلة عاشق فقد عقله على أبواب معشوقه.

وإذا كان الطريق إلى الغاية هو عمرنا فهو أغلى ما نملك وفيه نجمع الذكريات، وهي ثرياتنا التي تنير لنا الظلام الجاثي على الصدور.

كلما خطونا في طريقنا تبلورت الخطوات لتغزل من حروف الهجاء نهراً من الكلمات العذبة التي يضيق الصدر بها، فتخرج من الشريان والأوردة إلى الأوراق، فإن كانت خواطري حزينة أو سعيدة فهي قطرات صاغتها الدقائق وبلورتها الأيام.

المؤلفة

رسالة إلى جبران

فيما أتصفح جوجل قرأت قصة مي وجبران التي استمرت عشرين عامًا بدون لقاء حتى وفاة جبران، لم يلتقيا سوى بالرسائل التي كانت تحمل الحب والأمل والحياة في سطورها.

تأثرت بها كثيرًا، فمن أكثر المشاعر إيلامًا أن تحب ولا تحيا بجوار من تحب، كيف تحملا مثل هذا الشقاء؟ وأي عشق هذا الذي يتحدي الواقع بكل صعوباته ليظل صامدًا في وجه أعاصير الحياة، لا بد وأن يكون حبًا خالصًا نقيًا طاهرًا يستمد طاقته من النور الذي ينبعث منه.

كان أمتع شيء عندما أعثر على خاطرة جديدة لمي، كنت أرى نفسي في كلماتها إلى أن انفصلت تمامًا عن واقعي وعشت فيها، ولم أكن أفرّق أحيانًا بين الواقع والخيال، كنت أنسى اسمي وملامح وجهي، كانت تعيش بداخلي أو هكذا أردت.

كل صباح أتعمق في تفاصيل حياته، أو أبحث عن خاطرة كتبتها مي ورسالة أرسلتها له، والغريب أن المسافات البعيدة لم تخلق أي عائق أمامها، فما هو هذا الكائن الذي يسيطر على القلوب والأرواح بكل هذه القوة فلا يستطيع الإنسان فعل شيء سوى الرضوخ له؟

وكعادتي كل يوم بدأت رحلة البحث عن رسالة أو خبر أو حتى خاطرة لم أقرأها من قبل، حتى عثرت على بضع كلمات من رسالة مي لجبران كتبت فيها:

«أعرف أنك محبوبي وأني أخاف الحب، أقول هذا مع علمي بأن القليل من الحب كثير».

أخذت أقرأ هذه الكلمات عدة مرات فقد اعتصرتني كلماتها، فأنا أيضًا أخاف الحب وأهرب منه كلما حاول طرق أبوابي، هربت من نفسي وبنفسي حتى لا أقع فريسه له، حتى عزلت نفسي عن العالم كله وبقيت في وحدتي آمنة من طرق أبوابي، ولكن لا أدري ماذا حدث لي الآن، فأنا أشعر بالانزلاق رويدًا رويدًا في قصة حب غريبة.

لقد امتلكني شعور دافئ يسري في عروقي، يتغلغل في أحشائي، يجعل قلبي يدق طربًا حين أقرأ كلماته، أنا لم أره أبدًا ولم أسمع كلماته بصوته ولن أستطع.. فزماني غير زمانه ومكاني غير مكانه، كيف أعشق كلمات، وكثيرًا تساءلت هل هو خيال أم حلم وسأصحو ذات صباح وقد نسيته؟

هل سأنتظر طويلًا مثلما انتظرته مي حتى ألقاه عندما يؤذن لي بالذهاب إلى عالمه؟ كيف اكتفيت مي بالقليل من الحب؟ وكيف شعرت به كثيرًا وأنا أشعر أن الكثير منه قليل؟

كانت مي في شوق لرؤيته، شوق يحرق الأنفاس فتصاعد منها الدخان الذي كاد أن يغطي جدران غرفتي ويحجبني عن واقعي.

انتظرته مي كثيرًا على وعد بالحضور للقاهرة، ومرت الأيام ثقيلة وهي في انتظار وصوله، وأنا معها تسكن روحي وأسكنها ومن وقت لآخر، أذهب إلى مطار القاهرة أتجول في أروقته، أنظر في وجوه القادمين، أجوب ساحات الانتظار، أجلس هناك بالساعات في انتظار جبران.

هل يأتي؟ وهل يعلم أنني في انتظاره؟ وإن علم بمدى شوقي ماذا سيفعل؟ ربما سيأتي برغم الضباب الذي أخفى عنه وجودي.

سأنتظره ولن يدب اليأس في عروقي، فما الحياة إلا قطرات أمل تذوب في دمائنا، وما اليأس إلا انقطاع المطر عن واحاتنا.

كلما افتقدته كتبت له رسائل حتى امتلأت أدراجي، لا يهمني اختلاف الزمان أو المكان فهما وهم، وأدرك تمامًا أنك تحيا الآن في مكان ما في الوجود وتشعر بي، فلا شيء قادر على محو الحب إن اشتعل في القلب، ولا قيد يطفئ الشموع إن اتقدت.

عندما قرأت وصية جبران، وهي كلمات كُتبت على قبره وكأنها رسالة لي، أنا زينب: «أنا حي مثلك وواقف الآن بجانبك فأغمض عينيك والتفت تراني أمامك».. كنت أتساءل هل كتبها لأقرأها ليزداد تعلقي به؟

أما كلمات مي فقد كانت تصرخ بداخلي، تهزني، تجعلني أتمرد على الواقع الذي يكبلني بقيوده، لم أعد أهتم بآراء من حولي، لم أعد أراهم أو أسمعهم، أصبحت أسيرة في زمن بعيد، لا أريد العودة مرة أخرى إلى الحاضر.

بدأت أصاب بالارتباك في معرفة من أنا، مي أم زينب!

مروة إحدى صديقاتي تزوجت حديثًا بعد حب دام سنوات طويلة وتوفي زوجها في حادث سيارة، كنت أجدها تبالغ، فجبران أيضًا متوفَى إلا أنني لا أشعر بأي وحدة

ولا يغيب عني لحظة واحدة، فهل أنا أختلف عنها أم أنها تفتقد وجوده المادي الذي تعودت عليه لسنوات؟

قرأت مقولة مي: «وما السعادة في الدنيا سوى شبح يُرجى فإن صار جسمًا ملّه البشر، لم يسعد الناس إلا في تشوقهم إلي المنبع فإن صاروا به فتروا».

فهل نحن كائنات يشدنا كل ممنوع وصعب المنال؟ هل لو كان جبران إنسان عاديًا أكنت أهرب منه؟ ربما.

ذهبت لملاقاة صديقتي مروة، وقد تبدلت ملامحها، كانت حزينة أكاد لا أفرق بين سواد ملابسها والحزن المطبق على ملامحها، كلاهما يزيد الأمر سوءًا.

جلست بجواري تحاول رسم الابتسامة على شفاهها، لم أكن أعلم ماذا أقول لها، هل أواسيها مثلما فعل الجميع أم أقترح عليها أن تكمل حياتها وتنساه أم تعيش مثلي قصة حب مع روحه؟ ولكنها فاجأتني بسؤالها عن سبب تواجدي في المطار، فدهشت كيف عرفت أنني أذهب إلى المطار؟! ولمحت الحيرة على وجهي فابتسمت قليلًا وذكرتني بأخيها مراد الذي يعمل هناك، وقد رآني أكثر من مرة.

نظرت لها طويلًا، وأخذت أبحث عن مبرر، ولكني آثرت الحقيقة.

قلت: أنا أعيش قصة حب مع روح جبران خليل جبران.. نظرت لي بدهشة! فابتسمت وأخرجت من حقيبتي مذكرات أملآها بخواطرى لجبران، وبحثت عن خاطرة كنت كتبتها بعد عودتي من المطار وأنا حزينة لعدم حضوره، فنظرت فيها وأخذت تقرأ كلماتها حتى تساقطت دموعها ونظرت إليّ في شفقة، وقالت لي لم أكن أعلم أنك تعيشين ما أعيش، كيف حدث هذا... كنت أتخيل أنني الوحيدة التي أشعر بمثل هذه الغربة والوحدة، ولكن أنا لا أفهم كيف تتعلقين بشخص غير موجود بكلمات وسطور على الورق، قلت لها في غضب «بل عقل وفكر وروح وهذه الخواطر والرسائل هي وسيلته ليتواصل معي، أنا ما تمنيت في حياتي أن أرى إنسانًا مثلما تمنيت أن أرى جبران».

لا أخفي عليكِ يا مروة أحيانًا أنظر في المرآة فأرى صورة مي زيادة، وكثيرًا ما شعرت باختلاط مشاعري، لست أدري هل هذا نتيجة أنني أعيش قصة حب صوفية أم أنني قد أصابني الجنون؟

لا أدرى إن كانت مروة استوعبت ما أقول أم لا، ولكنني شعرت أنها على الأقل نسيت قليلًا حزنها وانشغلت بما قصصته عليها.

مرت عدة أيام داومت خلالها على حضور عدة ندوات ثقافية عن الأدباء العرب، حتى حضرت ندوة عن جبران كانت تتحدث عن مولده وشبابه وتأثره بالحياة في

المهجر، وكنت شغوفة بمعرفة تفاصيل حياته، وكنت أنظر إلى صورته المعلقة على الحائط فأشعر بعينيه تبتسم لي، وبعد انتهاء الندوة أخذني حنيني إلى المطار، جلست في صالة الانتظار وعيني مثبتة على الأبواب.

كنت أعلم أنه لن يأتي ولكن رغبتي في انتظاره تلح علي ولا أستطيع تجاهلها، جلست طويلًا ومرت ساعتان وأنا لا أفعل شيئًا سوى النظر إلى الأبواب وإلى وجوه المسافرين لعلني ألمح وجهه، وانتبهت إلى وقوف شخص بجانبي، رفعت عيني إليه وجدته مراد ينظر مبتسما فابتسمت، جلس بجواري سألني عن حالي، فنظرت له وضحكت.

وقلت: بالتأكيد مروة حدثتك عن سبب حضوري فأنا أعرفها لن تكتم حديثنا، فضحك ونظر إلى الأبواب، وقال: نعم بالفعل هي قلقة عليك، فقلت: ولماذا تقلق أليست هي مثلي تحب وتشتاق إلى إنسان يسكن العالم الآخر تغطيه الحجب، فقال: ولكنها لا تأتي إلى المطار لانتظاره.

كانت كلماته بمثابة صفعة على وجهي، حتى أنني لم أتماسك وامتلأت عيناي بالدموع، فاعتذر وارتبك وأراد أن يخفف عني فأخذني إلى كافيتريا المطار، ذهبت معه وأنا أشعر بضعف شديد ورغبة في الاحتواء.

جلسنا معًا حوالي ساعة، كان يتحدث بشكل متواصل وأنا أنظر إليه حتى انتبه إلى حالة الشرود والحزن التي انتابتني، فسكت وساد صمت طويل، لم أفهم مشاعري حينها.. هل حزنًا على عدم تمكني الحياة مع من أحب أم حزنًا على ضياع عمري في حب بلا أمل؟ حب هو أقرب للخيال من الواقع، وكيف أخرج من مأذقي هذا؟ كيف أقصيه عن قلبي وأنا أشعر بوجوده حولي يتخلل أنفاسي؟

خرجت من المطار فاستقبلتني أمطار خريفية خفيفة كأنها تمسح الألم عن وجهي وتخفي دموعي، أخذت سيارتي وعدت إلى المنزل أبحث عن وسادتي لعلها تحمل عني أحزاني.

سارت الأيام برتابتها لا تتغير، كلما أردت الهروب من نفسي غرقت في كلمات مي حتى تمر ساعات طويلة وكأنني انتقلت بالزمن لأعيش معاناتها مع مجتمعها، فكيف كانت سابقة عصرها؟ وكيف تعاملوا مع أفكارها المتحررة؟

مرت عليها ساعات طويلة كانت تغلق بابها فتنهار وتبكي كثيرًا، وتصرخ في صمت حتى لا يشعر أحد بانهيارها، ثم تخرج للجميع مرة أخرى صلبة مقاومة لكل العثرات، تتحدى إرادة الذكور الذين لا هم لهم سوى جعلها في الصفوف الخلفية بوأد موهبتها وإرادتها، كانت تعاني كثيرًا لتظهر هذه القوة، ولم يساندها سوى والدها وجبران، فقد كانا سندها في هذه الحياة، ولولاهما لانهارت واستسلمت.

كنت أعيش لحظات انهيارها، وأعود إلى رسائل جبران التي كانت بمثابة اليد الممدودة بالأمل والقوة لتخرجني وتخرجها من ضعفنا، بالرغم مما يعانيه هو في مهجره، وبالرغم مما يعانيه من قسوة البعد عن محبوبته مي؛ فقد كان الضوء في عتمة الحياة، كانت رسائله تعيد الأمل وتنير الظلمة.

ما هذا الحب يا جبران الذي يغلق منافذ الحياة كلها ولا يترك إلا منفذك، وكأنني قد حبست في شرنقة بعيدًا عن عالمي، شرنقة من صنعك أنت، كيف فعلتها بكل هذه المسافات بيننا؟ كيف أسرت مي في الماضي وتأسرني في الحاضر برسائلك.. أتعملت السحر؟! فبدأت رسائلك بتعويذة حب جعلت كل من يقرأها يحبك، وهل نحن الضحيتان الوحيدتان أم أن هناك العديد من الضحايا في أزمنة وأمكنة مختلفة؟ فما سرك جبران، ما سر رسائلك.

جاء الشتاء ببرده القارس كانت برودته تتغلغل بأوصالي، وكلما أردت الدفء أمسكت رسائلك وكأنها الشمس تتسلل إلى روحي تعيدني إليك، إلى دفء قلبك عبر دفء كلماتك.

مر الشتاء وجاء الربيع وتوالت الفصول وما زال قلبي ينبض بحبك، وكلماتك تسري بشرياني كأنه وتر في آلة موسيقية اتقنت العزف عليه لا يعزف إلا ألحانك أنت.

نسيت الناس ونسيني الناس واكتفيت بك جبران، اكتفيت بالحياة مع طيفك لا أطلب المزيد.. وإذا افتقدني أحد وبحث عني فلن يجدني؛ لأنني الآن أعيش في الماضي، فقد تركت زينب نهائيًا وأنا الآن مي زيادة نزيلة مستشفى الأمراض النفسية والعصبية، ولم أعد أتذكر من رسائلك سوى هذه الرسالة: «قد جمعنا الحب فمن يفرقنا، وأخذنا الموت فمن يرجعنا».

لا أدري كم مرّ من الوقت، ربما مر يوم أو شهر وربما عام لم أعد اهتم بالزمن.. أصبح سفري فيه من الطقوس اليومية فأنا في لحظات أصبح مي وأعيش في الماضي في مجتمعها بقسوته وصلابتها.. في لحظات عند تناولي العقاقير أجدني أمام زينب التي تعيش في الحاضر.. وحدة قاتلة ولا تعرف كيف تخرج من هذا التمزق الذي تعانيه.

ذات مساء أبلغتني الممرضة أن هناك شخصًا جاء لزيارتي فأسرعت إلى المرآة أتزين وأنتقي أجمل ملابسي، فلم يخطر ببالي سوى أن الزائر هو جبران.

أخذتني الممرضة إلى حجرة الزيارة فوجدته أمامي يقف في مواجهة النافذة وكانت الشمس تقارب المغيب، وأضواءها الساحرة تملأ الغرفة.

ما هذا السحر الذي يلفني هل أنا أحلم، أخيرًا حدثت المعجزة وقابلته، وقفت أتأمله كان يرتدي قميصًا أزرق وبنطلونًا رماديًا، وقف متأملًا منظر الغروب، ولم يكن

ينظر إلي في بادئ الأمر ثم انتبه لوجودي واستدار مبتسمًا، وجدت في عينيه حنينًا وشوقًا وفي يده دفئًا وحنانًا، وطالت لحظات سلامنا وتعانقت أيدينا، وكنت أود أن أرتمي بين أحضانه.. أعانقه.. لأذوب به؛ فشوقي له شوق زينب ومي معًا.

تمسكت بيده حتى جلسنا على أريكة مواجهة للنافذة، وأخذت أنظر إلى تساقط أشعتها الساحرة على وجهه، تمنيت أن يتوقف الزمن إلى الأبد، سألني كيف حالك؟

فأجبته: بالتأكيد سعيدة فقد تحقق الحلم.. أخبرني كيف تحديت الزمن حتى وصلت إلى هنا.. جبران هل أنت حقيقة أم أنا أهزي؟

وهنا لاحظت تغير وجهه فسألته ما بك؟ هل قلت شيئًا يعكر صفوك، فنظر قليلًا إلى الممرضة ثم عاد وابتسم وقال أنا في غاية السعادة لرؤيتك.

أخذت أقص عليه كيف أنني أستطعت السفر عبر الزمن لأعود إلى زمن مي، وأنني أحيانًا عند نظري في المرآة أرى زينب وهذا يصيبني بالحيرة، أخذ يستمع باهتمام حتى أنهت الممرضة الزيارة.

تركني وغادر وعدت إلى غرفتي أشعر بشيء عجيب في داخلي ولا أفهم ما هو.

أما هو فخرج من الغرفة وذهب إلى دكتور زكريا رئيس القسم وأخبره ما حدث، قال:

لقد تخيلت أنني جبران خليل جبران ووجدت أن من الأفضل عدم مصارحتها حتى لا تصاب بصدمة.

فأومأ دكتور زكريا برأسه قائلًا:

نعم كنت أتوقع هذا، فعند تعاطيها الجرعة اليومية تعود لشخصيتها لدقائق معدودة وفي هذه الحالة تظهر عليها مظاهر الإحباط والاكتئاب، وسرعان ما تهرب ثانية إلى مي زيادة في زمنها وشوقها للقاء جبران لتعود وتعيش قصة حبهما، واليوم عندما رأتك تخيلت أنك جبران فهذا طبيعي.

رد قائلًا:

وهل هناك علاج آخر في رأيك يساعدها في استرجاع زينب؟

هناك وسيلة ربما تأتي بنجاح، فالعقاقير لم تأتِ بنتيجة فاعلة حتى الآن، وأنا أقترح أسلوبًا آخر وهو يعتمد على زياراتك لها وبخاصة لأنها تراك جبران.

وطلب منه الاستمرار في تمثيل دور جبران مع تشجيعها على كتابة مذكراتها بما أنها كاتبة في الأساس وعرضها عليه بصفته جبران الكاتب الكبير، وأراد بهذا تحفيز عقلها على الوصول إلى الحقيقة من خلال سرد يومياتها، فربما استطاعت الخروج من الشرنقة التي تحتجز بها زينب.

جاء ميعاد جرعة الدواء وكانت لا تتوقف عن الحديث عن زيارة جبران وهي تسرد أحداثًا كثيرة حدثت لمي، وتتذكر وجودها بالمطار وشوقها لرؤيته، حتى هدأت انفعالاتها تمامًا وشردت وتذكرت زينب، وتزاحمت الأسئلة في رأسها تحاول أن تفهم كيف جاء جبران من العالم الآخر لزيارتها.

كيف يتداخل العالمان وتحدث هذه المعجزة، ولكنها لبضع دقائق من الاتزان بررت هذه الزيارة بأنها محض خيال صورها عقلها المريض لشغفها وشوقها لرؤيته، وانتهت إلى أن ما مرت به حلم جميل كباقي حياتها تنتقل من حلم إلى آخر.

وفي اليوم التالي جاء الغروب وتجددت الزيارة وأحضر معه دفترًا وعدة أقلام، وجلس ينظر إلى غروب الشمس ينتظر حضورها، حتى جاءت إليه بابتسامة مشرقة وسعادة غامرة وهي تتراقص فرحًا لعودته مرة ثانية، وأمسكت بيده تريد أن تتأكد أنها لا تحلم، أعطاها الدفتر والأقلام وطلب منها أن تعاود كتابة مذكراتها ولاسيما مشاعرها تجاهه.

عادت زينب إلى غرفتها محملة بمشاعر مختلفة عن الأمس، فقد بدأت تتيقن أن ما تمر به حقيقة لا خيال، وازدادت حيرتها كلما نظرت إلى الدفتر تأكدت بأنها تعيش واقع ولكن كيف.. هذا ما لم يتقبله عقلها، وكلما حاولت الهروب من هذه الحيرة إلى شخصية مي ردتها هديته إلى الواقع.

استمرت زينب حوالي ثلاث ساعات جالسة فوق سريرها تنظر إلى الدفتر والأقلام كأنها تنظر إلى كائن خرافي خرج من فيلم خيالي، ففي عقلها تناقض ومحاولات للفهم لا تصل بها لأي شيء عقلاني حتى تعبت ونامت.

استيقظت مع شروق الشمس وفتحت عينيها على شعاع قد تسلل من النافذة إلى وجهها محاولًا إيقاظها من غفوتها، وما إن استعادت ذاكرتها حتى انتفضت باحثة عن الدفتر والأقلام فوجدتهم بجوارها على السرير، فأمسكت بهم محاولة أن تتأكد من حقيقة وجودهم وأمسكت بالقلم وكتبت بالدفتر: «أنا لا أهزي أو أحلم أنا مستيقظة وهذه حقيقة».

وبدأت رسائل زينب إلى جبران.

كانت تجلس في الحديقة لمدة ساعة صباحًا تحدق في اللا شيء، ولكن بعد أن أحضر لها الأوراق والأقلام أصبحت تبوح بكل ما تشعر به من حيرة وفرح وحزن حتى تخيلاتها التي تعيش بها.

في البداية كتبت عن مي زيادة وصالوناتها الأدبية ومعاناتها مع المجتمع، ثم تحول الأمر إلى معاناتها مع عدم إدراكها لأشياء كثيرة منها هويتها وزمانها.

أما هو فقد كان يقرأ باهتمام وهي تنظر له في شوق لمعرفة رأيه فيما تكتب، وكان دائم التحفيز لها فصارت تكتب ليل نهار ولم تعد تترك دفترها إلا حين يغلبها النوم، ومن كلماتها في رسالتها الثلاثين:

«جبران أريد أن أخبرك، الآن عندما أنظر في المرآة أرى تغير ملامحي كيف يحدث كل هذا، هل جننت أم أن هناك شيئًا قد تبدل في إدراكي.

أعلم أنني لست بكامل قواي العقلية، وأنني لست طبيعية، ولكني لا أعرف ما هي الحقيقة وما هو الخيال وكيف أكون مي وأتحول لزينب؟

وأكثر ما يخيفني هذه الأيام هو أنني في كثير من الأحيان أكون زينب ولا أستطيع الوصول إلى مي بسهولة، وأصبحت وحيدة في عالم غريب، أصبحت زينب ولكن يبقى

لغز يحيرني! كيف أكون زينب وكيف تكون أنت جبران؟ كيف أتيت إلى عالمي؟ فلا عقل ولا منطق يقبل هذه الزيارة.

جبران أتمنى أن ترشدني.. هل أنت خارق للطبيعة أم أن عقلي ما زال مريضًا، ولكن كيف تكون خيال وتأتيني بالأوراق والأقلام؟ كيف جبران خبرني؟ هل أنت شخص آخر وأنا لا أدرك من أنت».

جاء ميعاد الزيارة ذهبت زينب وما إن رأته أمامها حتى سقطت الأوراق من يديها وتقدمت ببطء حتى لمست أناملها وجهه، قالت:

لست جبران أليس كذلك، لقد تبدلت ملامح وجهك كما تبدلت ملامح وجهي.

التقط الأوراق ووضعها بجانبه وجلس بجوارها وهو يمسك يدها وهي ما زالت تنظر إليه في حيرة كبيرة تحاول أن تدرك حقيقته، وكأنها تريد أن تنسخ صورته الجديدة في رأسها حتى تبحث في ذاكرتها عن صاحب هذه الصورة.

كانت تقضي وقتها شاردة حزينة تحاول التعايش مع فكرة أنها زينب وقلبها معلق بجبران، لكن حزنها كان أكبر حين أدركت أن من يزورها ليس هو.

حاولت أن تكتب رسالة جديدة ولم تستطع لعلمها أنه ليس هو بل شخص آخر ربما تكون زيارته لها من باب الشفقة، قذفت بالأقلام والأوراق على الأرض وانفجرت في البكاء وشعرت بالوحدة كجبل من الثلج ينهار على قلبها حتى وصلت برودته إلى أطرافها.

وفي المساء جاء لزيارتها ولم تكن كعادتها تعتريها الفرحة، كانت تسير كالشبح الذي فقد أسباب حياته، عندما رآها أسرع إليها وقبل رأسها أخذت تبكي بكاءً صامتًا فرفع وجهها بيديه، وقال: لا احتمل رؤية دموعك، أنتِ صاحبة العقل الراجح والروح القوية، ومسح عنها دموعها وأجلسها بجواره.

قالت: أصبحت أعاني كثيرًا في محاولة إدراك الواقع، أذكر صديقة كانت حزينة لفقدانها زوجها وكان اسمها مروة.. ونظرت إليه وقالت في اندفاع تذكرتك أنت مراد أليس كذلك.. نعم أنت هو وكانت آخر مرة أراك في المطار يوم تقابلنا وأنا أنتظر جبران.

وأخذت تبكي وهو يمسك يديها المرتعشتين وهي تعاني الإحساس بالضياع، أخذ يهدأها حتى زالت عنها رجفتها وهدأت ثورتها وابتسمت قائلة: لقد استعدت جزءًا كبيرًا من عالمي يكفي أنني عدت إلى الحاضر وتركت الماضي بالرغم من روعته.

ومع مرور الأيام بدأت تستعيد حاضرها شيئًا فشيئًا ولكنها لم تستطع الخروج من حروف جبران، وقد كانت على يقين من أنه كتب هذه الحروف لها بالرغم من أنه لم يشاركها زمانها نفسه، كانت لا تزال غارقة في عشقه، دائمة البحث عنه وهي تعلم جيدًا أنها لن تقابله، وأن حضوره مستحيل إلا أنها كانت تستحضر طيفه فتراه جالسًا أمامها، بل أنها تشعر بدفء يديه وحرارة أنفاسه.

عاشت زينب مخبأة في حروف جبران اتخذت من حنايا صدره مسكنًا تهرب فيه بعيدًا عن الواقع الذي أيقنت أنها لن تستطع الهرب منه، وكلما وقع بصرها على كلماته شعرت بها تخرج دافئة من شفتيه فتمنحها معطفًا يلملم أشلاءها.

وآخر ما قرأت من كلماته: «من اللازم عليك تخطي الحطام الذي يمر بك، لأن الحياة لا تقدم رسائل اعتذار وتأسف على ما يجري ولا تعدك بأنها المرة الأخيرة».

كانت للمرة الألف كلماته رسائل تبعث في روحها قوة وعزيمة فاستجابت للعلاج وأصبحت قادرة على الحياة خارج أسوار المشفى، غير أنها لم تستطع ترك جبران خلفها بل أخذته معها لا يفارقها ولكن بوعي بعدم إمكانية تجسده أمامها، فهو طيف يسكن روحها وتسكن روحه.

ومضت الأيام وهي تتمسك بأقلامها وأحبارها وأوراقها التي أعطاها لها مراد، وكل يوم تجلس لتسكب في الأوراق عطر عشقها الذي تعدى أثيره الأوراق فغمر كل شيء حولها المكان والزمان، وكل من قرأ حروفها هام عشقًا بها هي حبيسه جدرانها.

وبعد خروجها بعدة أسابيع ذهبت إلى المطار ولكن هذه المرة اختلفت أسباب الزيارة، بحثت عن مراد حتى وجدته وأسرع إليها ابتسم وأمسك بيدها، وقال: أهلًا زينب سعيد جدًا بأنني رأيتك أخيرا وأعتذر عن عدم سؤالي عنك فترة مرضك فقد كنت مسافرا إلى الخارج مع زوجتي ووصلت من أيام قليلة فقط.

كانت كلماته كطلقات الرصاص في صدرها، نظرت له بدهشة، طار عقلها وهي تتسأل كيف؟ هل ما زلت أهزي؟ ماذا يحدث لي؟

إن كان مراد مسافرًا ولم يزورني فمن الذي كان يزورني ويحضر لي الأوراق والأقلام، كادت أن تنهار من هول المفاجأة، إذا كان مراد مسافرًا وجبران خارج حدود الزمان فمن يكون؟ كيف يتجسد الخيال ليصبح حقيقة.

أخذت تفتش في أدراجها حتى عثرت على الدفتر والأقلام التي أتى بها، وكادت تنهار وهي تحاول أن تفهم، وكان الحل الوحيد هو العودة إلى المشفى وسؤال الممرضة عن شخصية الزائر.

ذهبت إلى المشفى، بحثت عن الممرضة فلم تجدها قررت انتظارها حتى تأتي.

جلست عدة ساعات في قاعة الانتظار غلبها النوم حتى استيقظت على صوت تعرفه ويد تلمس يدها بحنان تألفه فاستجمعت كل قواها، نظرت إليه وكل جوارحها قد تجمعت في عينيها شوقًا لرؤيته، رؤية الطيف الذي انتشلها بعد أن تاهت بين الماضي والحاضر، وأعاد لها حياتها وملامحها التي ضاعت منها في ملامح مي زيادة، نظرت له وكانت تخشى أن تعود مرة ثانية تائهة في خيالها، ولكنها حين رأته وجدته شخصًا آخر ليس جبران ولا مراد، بل وجدته شخصًا ثالثًا لا تعرف عن ملامحه شيئًا هي تشعر به من احتضان يديه، من شعور الحنان الذي يغمرها من أنامله، من صوت أنفاسه التي طالما استأنست بها وأعادت الهدوء إلى روحها من رائحة عطره التي كانت تعلق بها كلما زارها.

قال لها هل أدركتي الآن من أنا؟ فنظرت إلى يديه وقالت:

نعم أدركت، أنت طوق النجاة، الملاح الماهر الذي أعادني من الماضي للحاضر.. أنت...

وهنا قاطعهما حضور أحد العاملين قائلًا:

أهلا دكتور جبران، كيف حالك؟ لم أرك منذ عدة أيام، فابتسم وقال: كنت في مؤتمر طبي بالخارج وقد حضرت اليوم فقط، فنظرت بدهشة بالغة وهو ينظر إليها، ويقول:

لا أدري، هل هي مصادفة أم قدر أن تأتي إلى هذه المشفي التي أعمل بها وأنتِ عاشقة لجبران وأن أتولى علاجك؟ نعم اسمي جبران تيمنًا بجبران خليل جبران، لا تسأليني كيف يحدث ذلك وهل نحن نعيش أسطورة.

أنا أحب الأدب وأكتب الشعر بالرغم من كوني طبيبًا، ولكني هنا في زمانك وإذا أردتي رؤيتي فقط اتصال بسيط من هاتفك تجديني، لن تحتاجي للهروب إلى الماضي لملاقاتي.

نظرت إليه كثيرًا وهو يجلس بجوارها حتى اطمأنت إلى أن وجوده حقيقة واقعة وليس من صنع خيالها.

ثم طلب منها أن تعود مرة ثانية لمراسلته؛ فقد تدفقت رسائلها في شرايينه كنهر جارف أزالت الحواجز بينهما.

ولكن عمله طبيبًا منعه من البوح بما يشعر، أما الآن وقد شفيت وزالت الموانع يستطيع أن يبوح لها بحبه وتعلقه بحروفها.

ابتسمت زينب عندما سمعت ما كان يحدث وهي غائبة عن الحاضر ولكنها وقعت في مأذق.

هل تبدأ رحلة جديدة مع الدكتور جبران أم تظل على وفائها لجبران خليل جبران.

قسوة الفراشات

كانت الفراشات البيضاء تمرح في حقولنا الخضراء، كلما أشرقت الشمس وخلفها كان الأطفال يطاردونها وصوت الضحكات يصل لعنان السماء، كانت الأشجار والطيور تتابع مرحنا في حب وأمان، حتى عصفت عاصفة ريحها محمل بالغربان، تنعق فتفر أمامها الحياة.. صراع بين الظلام والنور.. بين الرحمة والقسوة.

كان قدرنا أن نحيا في بلادنا حياة مليئة بالألم، لم ننعم بالأمان ولم يعطنا الزمان وقتًا لتضميد الجراح، فكلما جففنا دموعنا من غزو مستبيحي دمائنا وأعراضنا أعادوا الكرة مرة أخرى، حتى أصبحت البسمات على وجوهنا دليلًا على التحدي والعزيمة والإصرار على الحياة بالرغم من الدماء المسالة والأحزان المستمرة لفراق أحبتنا.

أكثر من سبعين هجومًا تعرضت له بلادنا ونحن نقاوم ونتمسك بالحق في الحياة وحرية الاعتقاد، فليس من شأن أحد فرض اعتقاده أو عقاب الآخرين لكونهم مختلفين عنه؛ فالحساب بيد الله وحدة وإليه المرجع والمآل.

هذه هي مأساتنا نحن الأيزيديين التي جعلتنا نحتمي بالجبل من ظلم البشر، وانعزلنا عن العالم على أمل أن يتركونا لنعيش بسلام ولكن الشر المتمثل في بعض البشر لم يدعنا في عزلتنا، وها هي تعود من جديد حملات الإبادة التي لا تنتهي وكأننا شعب ليس له الحق في الحياة.

قصتي هي واحدة من آلاف القصص التي حدثت في الماضي وحتى يومنا هذا، فقط تختلف الأسماء وبعض التفاصيل ولكن النهاية واحدة.. قتل وسبي واغتصاب وبيع في سوق الجواري.. كل شيء مباح.

والمؤلم أن يفعلوا بنا كل هذا تحت راية كتب عليها اسم الله، وما أفعالهم إلا أفعال الشياطين.. ولكن إيماننا أقوى من شرهم وسنظل صامدين لنبقى على تراثنا وأصالتنا ونعلم أطفالنا أن يحملوا الراية بعدنا ويحافظوا على الهوية الأيزيدية.

اسمي سارة وعمري عشرون عامًا، مأساتي بدأت في يوم بدّل كل حياتي رأسًا على عقب، فقد عشت حياة بسيطة في منزل ريفي متواضع وسط عائلة مسالمة، كانت رائحة

منزلنا خبز طازج، وحديقتنا تفوح منها روائح الياسمين والريحان، وكان لدينا حظيرة صغيرة خلف البيت وبعض أشجار التفاح والليمون وكرمة عنب، فقد بنى جدي هذا البيت على سفح جبل في منطقة جبال سنجار التي كان يحتمي بها أهلي وعشيرتي.

مرت أيام اللهو في المروج الخضراء خلف الفراشات وتبدلت بأيام بلون الليل وبطعم الدم ورائحة الموت، فقد هجمت علينا إحدي الجماعات الإرهابية المسلحة، وتحولت الضحكات إلى صرخات وصيحات ودموع حين وصلوا إلينا واحتجزونا لعدة أيام بلا طعام أو شراب.

وأحضروا جميع فتيات القرية في مكان واحد وأمسكوا بالرجال والفتيان وأمروهم بحمل السلاح والانضمام إليهم، ومن يعصِ أو يرفض يُقتل، بيد من يرتضي أن ينضم لهم، وكنا نسمع طلقات الرصاص بالخارج ولا ندري من قُتل من أهلنا، حتى جاء اليوم الأسود الذي قرروا الانتفاع بنا، ووجدت نفسي مع بعض الفتيات في عربة كبيرة ننقل كقطيع من الماشية بين إهانات مستمرة من هؤلاء السفهاء، ونقلونا إلى مكان متسع، وعلمت بعد أن وصلت أنه سوق للجواري لبيع غنائمهم من الفتيات.

بدأت المزايدات بعد فرزنا حسب السن والجمال وكلما كانت الفتاة صغيرة وجميلة ارتفع ثمنها، وكنت من نصيب شخص يدعى صهيب، وهو مجرد اسم حركي ليخفي شخصيته الحقيقية.

كان طويلًا ونحيفًا، وعيناه غائرتان، ذو بشرة سمراء تميل للشحوب مما يظهر أنه مريض أو مدمن مخدرات، وبخاصة أنه لا يستطيع الوقوف ثابتًا بل إنه دائم الحركة، وبعد عدة أيام من وجودي معه تأكدت من انه إنسان مهزوز غير متزن، ففي لحظات يصبح بدون مشاعر كأنما تحول إلى وحش بلا عقل، وقد زاد من تأثير حالته تعاطيه للمخدرات التي كانت تذهب بعقله تمامًا، وفي لحظات أخرى أشبه بطفل صغير يحتاج لحنان أم يختبئ بصدرها.

مكثت في بيته حوالي شهر حاولت خلالها معرفة مصير عائلتي ولكني لم أصل لشيء، فقد كان يخفى عني أي معلومة وينهرني كلما سألته ولا يهتم إلا بإرضاء رغباته المريضة، وكان يمتلك أربع فتيات أخريات مثلي وجميعنا نعد غنيمة له، فكل فتاة هي نصيبه من غنائم اعتدائهم علينا.

كانت الأيام تمر علينا ونحن نحاول ألا نستسلم لما أصابنا، ثم أخذنا صهيب إلى منزل كبير أخذه غنيمة له من آخر قتال، وكان منزل أحد الأثرياء في البلده وكان أكثر اتساعًا، وبه مكتبة كبيرة بها كتب قيمة وقصص وروايات، كنت أقرأ خلسة عندما يخرج من البيت فقد حرّم علينا القراءة.

مرت أيام طويلة قاسينا فيها من معاملته السيئة حتى جاء اليوم الذي فاض بي الكيل، فقد أحضر معه بعض الحبوب المخدرة وأخذ يتعاطي ويطالبني بالرقص،

فرفضت الرقص لأني لم أستطع تحمل دور الجارية أكثر من ذلك، فأخذ يصفعني على وجهي بشدة حتى شعرت بالدوار وسقطت على الأرض، وفي هذه اللحظة مرّ أمام عيني كل ما مررت به وما رأيته من عذاب وجوع واغتصاب وأشلاء الموتى من شعبي الملقاة على جانبي الطرقات، وحينها لم أشعر بنفسي إلا وأنا ألتقط بندقيته وأطلق عدة رصاصات في صدره حتى سقط على الأرض غارقًا في دمائه، ولم أكن أدري ماذا أفعل هل أستسلم ليقتلوني أم أحاول الهرب؟ وفي لحظات سمعت طرقًا شديدًا على الباب، وعلمت أنني هالكة فقررت ألّا أموت وحدي ما دمت سأموت، وأخذت سلاحه وكثيرًا من الطلقات وخنجرًا كان يضعه في ملابسه، وانطلقت هاربة من النافذة الخلفية للبيت، وأخذت أجري بأسرع ما أوتيت من قوة باتجاه الشرق إلى خارج المدينة، وما ساعدني في الهرب هو الظلام الحالك بفعل تحطيمهم لمحطات الكهرباء، وصلت إلى الطريق العام، وبالرغم من ارتدائي النقاب كنت أخشى أن يراني أحد منهم ويتعرف علي، وبخاصة وأنا أحاول إخفاء السلاح فيه، وكنت على استعداد للموت في أي لحظة، فلم أكن أشعر بأي خوف بل كانت تتملكني الرغبة في الانتقام لنفسي وللفتيات الأخريات ولعائلتي التي أجهل مصيرها حتى الآن.

حالفني الحظ حين قادتني أقدامي إلى مدرسة كانت تستخدم في تجميع الفتيات مثلي قبل بيعهن، وكانت محاطة بعدد من الحرس حتى لا تتمكن الفتيات من الهرب، وكنت أختبئ خلف الأشجار القريبه تراودني الأفكار الجنونية في التضحية بنفسي في

سبيل تحريرهن، رأيت نفسي وأخواتي والفراشات البيضاء التي مزق أجنحتها خفافيش الظلام، رأيت فيهن براءة نفسي قبل أن يحولني الظلم إلى قاتلة.

فيما كنت مختبئة أحاول أن أتحين فرصة للانقضاض على الحرس لاحظت حركة في الظلام.

فخشيت أن يكون أحد الإرهابين قد تبعني، فحبست أنفاسي وأمسكت بالسلاح وتأهبت لقتله وأخذت أترقب الأحداث حولي فرأيت ثلاثة رجال يحملون السلاح ويحاولون التسلل إلى المدرسة فأدركت أنهم جاؤوا لتحرير الفتيات، وأردت أن أنضم لهم ولكني خشيت أن يقتلونني وهم يعتقدون أنني أحد الإرهابيين.

فقررت الاختباء والمراقبة والخروج إذا تطلب الأمر، كان الظلام سترًا لنا جميعا يحالفنا كي نقاوم ظلام الإرهاب، ومرت دقائق قليلة حتى بدأ التحرك من جديد وتفرق الرجال كل رجل في اتجاه طوقوا المكان وجهزت سلاحي حتى أكون على استعداد، وفي اللحظة نفسها بدأ الرجال الثلاثة في إطلاق النار على الحرس وقتلوهم جميعًا واقتربوا من الأسوار بحرص شديد، وفتح الباب وظهر بعض الإرهابيين من الداخل وأخذوا يطلقون النيران عليهم وكنت في المواجهه أمام الباب.

فاحتميت بجذوع الأشجار وأخذت أطلق النار على من خرج من باب المدرسة حتى قتلت اثنين وأصيب اثنان آخران إصابات بليغة، وهنا تفاجأ الرجال الثلاثة بوجودي ولكنهم استمروا بالتقدم حتى دخلوا المدرسة، ووقفت في مكاني لأحمي ظهورهم وسمعت طلقات بالداخل وصوت صراخ عالٍ، ثم ساد الصمت لحظات ورأيت رجلًا منهم يخرج وخلفه الفتيات ويتبعهم الرجلان الآخران ثم قدمت سيارتان إلى المكان لنقلهم، وبعد أن صعد الجميع توقف الرجل الذي كان بالمقدمة وأخذ ينظر إلى الأشجار باتجاهي وأخذ يرفع يديه ملوحًا وينادي هل هناك أحد؟

فأسرعت باتجاهه وأنا أرفع يداي عاليًا حتى يطمئن فلا يقتلني، واقتربت منه فقال لي من أنت؟ فقلت له أنا فتاة هاربة من قبضتهم، فقال لي هيا اصعدي مع إخوتك فصعدت إلى السيارة الأولى وصعد هو أيضًا، وغادرنا المكان حتى وصلنا إلى قرية صغيرة كانت محاطة بفرق من الجيش لحمايتها، وعندما وصلنا هلل أهل القرية، وحضر الجميع لاستقبال الفتيات المحررات بفرحة وبكاء، ولم أكن أدري إلى أين أذهب ووقفت أنظر إليهم، وجاء الرجال الثلاثه وصافحوني وأخذوا يصيحون بين الأهالي وانتبه الجميع إلى وجودي، وقال لهم أحدهم لولا بطولة هذه الفتاة لم نكن هنا الآن، فقد قتلت عدة إرهابيين وحدها، وأخذ الجميع يصافحونني ويطلبون مني أن أكون ضيفتهم حتى جاء رجل من الثلاثة وعرفني بنفسه، وقال: أنا إبراهيم أعيش وزوجتي وحدنا فلم نرزق بأبناء، ومن اليوم بيتنا هو بيتك إلى أن يجمعك الله بعائلتك من جديد.

أخذني معه إلى داره وكان رجلًا في الستين من عمره يبدو عليه الطيبة والوقار، كانت زوجته سيدة بهية الطلعة كأنها شابة بالعشرين من عمرها، قابلتني بالترحاب.

وبعد عدة أيام فيما كنت جالسة مع عم إبراهيم حضر أحد الرجال ليخبره عن رصدهم تحرك إرهابي باتجاه القرية، وأنهم سيشكلون دروعًا خلف الجيش حتى يساندوه في صد العدوان وتمنيت أن تتيح لي الفرصة لأقاتل معهم، وطلبت من عم إبراهيم أن يوكل إلى أي مهمة أساعدهم بها، فأنا لم أعد أهتم للحياة، وكل هدفي هو تحرير وطني وحماية من أعدهم في منزلة عائلتي، وحتى لا تقع أي فتاة فريسة في يد هؤلاء النخاسين.

وبعد عناء وافق عم إبراهيم وسمح بمرافقة البعض لحراسة منزل سيتجمع بداخله النساء والأطفال لحمايتهم.

وبعد ساعات كان كل منا في موقعه يتأهب لملاقاة هؤلاء الشياطين، وذهب الرجال إلى الجيش وانتشروا حول القرية وتجمعت النساء والأطفال بالمنزل، وجلست أمام الباب الأمامي ومعي بندقيتي وخنجري، وكان معي فتاة في مثل عمري وثلاثة شباب آخرين نترقب الأحداث وأعيننا تجوب المكان بحثًا عن أي حركة في الظلام.

وبعد منتصف الليل سمعنا دوي انفجارات وبدأت الطلقات تتطاير في الهواء، وبعد حوالي ساعة من القتال العنيف حدث انفجار شديد بالمنزل المجاور وتطايرت الشظايا في كل مكان، وامتلأ المكان بالغبار والدخان وأصيبت الفتاة التي كانت بجواري بشظية في صدرها، فحملناها إلى الداخل لإسعافها وبقيت مع الشباب نحتمي خلف جدار مهدم أمام المنزل نترقب قدوم أي عنصر غريب، وبين الغبار وآثار الانفجار رأينا عدة أشخاص يتسللون من الناحية الشرقية وكانت نقطة ضعف للجيش، وحبسنا أنفاسنا حتى لا يسمعنا المتسللون إلى أن أصبحوا في مرمى أسلحتنا وأطلقنا عليهم النار حتى قتلناهم، وبعد دقائق قليلة دوى انفجار آخر على مقربة منا، ووسط الغبار والدخان رأينا عدة أشخاص يتحركون باتجاهنا مشهرين أسلحتهم، وانطلقت رصاصة أصابت قدمي، حبست أنفاسي حتى لا أصرخ من الألم ولم أستطع الحركة وحاول شاب مساعدتي ولكنه لم يستطع فقد بدأ الرصاص ينهال علينا فتحاملت على آلامي، واعتدلت وبدأت بإطلاق النيران مع الشباب بشراسة حتى قتلنا منهم البعض والباقي فر من الاتجاه نفسه، وبعد قليل سمعنا دوي انفجارات من مكان انسحابهم، ثم جاءت سيارة تابعة للجيش بها عدة رجال من الأهالي، وأبلغونا بفشل المحاولة الإرهابية على القرية، وبأن الجيش قد أباد الإرهابيين عن آخرهم.

وحملوني إلى الداخل لإسعافي وإخراج الرصاصة من قدمي، وكانت هناك طبيبتان تتعاون معهن باقي النساء في علاج الجرحى وأُحضر جميع المصابين وتحول المكان لمشفى لعلاج الجرحى.

وعند طلوع الشمس نظرنا حولنا فوجدنا آثار العدوان من قتلى وبيوت أمست بفعل القصف ركامًا، وجلست بجوار المنزل أنظر إلى شروق الشمس وأتعجب كيف يتحول الإنسان إلى وحش وأداة هدم، وقتل بلا رحمة ولا إحساس منعدم الضمير، كيف غُسلت عقولهم وتحولوا لهذه الصورة البشعة! لقد فقدوا إنسانيتهم.

ذات مساء كنت أجلس مع بعض الفتيات حتى جاء عم إبراهيم وأخذني إلى المنزل، وكان صامتًا طوال الطريق حتى وصلنا، وطلب مني الجلوس وأبلغني ما ورده من أنباء وكانت نهاية العالم بالنسبة لي، فقد أبلغني أن جميع سكان قريتي رفضوا الانضمام للإرهابيين؛ ولذلك قتلوهم جميعًا ودفنوهم بمقبرة جماعية بعد أن آثروا الموت عن الانضمام لصفوفهم وقتل الأبرياء، أما النساء فلا أحد يعلم مكانهن بعد.

وبعد بكاء وحزن طويل استسلمت في النهاية وأكملت حياتي في منزل عم إبراهيم وزوجته، وما زلت أحاول كل يوم أن أستعيد حياتي وأقاوم إحساس الهزيمة والضعف، وقررت أن أعيد الحياة للوطن الجريح في رعاية الأطفال؛ فهم من

سيحملون الوطن في المستقبل وقد تحملوا فوق طاقة البشر، ويجب أن نروي ظمأ أرواحهم حتى تخضر ولا يستغل يبسها الإرهاب ليحولهم لقنابل موقوتة.

فأنشأت مكانًا أشبه بنادٍ ثقافٍ للأطفال، واستغليت دراستي ومعرفتي بالتاريخ والحضارات وموهبتي في الموسيقى، وانضمت لي عدة فتيات، وأصبحنا كل يوم نعلمهم ونمنحهم أوقاتًا جميلة بالرسم والموسيقى والغناء التراثي؛ لتظل هويتنا حية لا تموت مع محاولات طمسها التي فشلت على مر السنين لإبادتنا، وما مررت به جعلني أؤمن أنه إذا كان الموت في سبيل الله جهاد فالحياة في سبيله نضال.

رحلة إلى الشمس

دائما ما أحاول أن أنهي مراحل حياتي لأبدأ من جديد؛ فالبدايات ميلاد جديد يحمل الأمل ويعيد إلى الروح حيويتها وإشراقها.

لقد اجتزت عدة تجارب في حياتي، بعضها نجح وبعضها فشل، ولم يكن الفشل سوى بداية جديدة.

هكذا هي الحياة وهكذا أتعامل معها، دائمًا أضع نصب عيني حركة الأرض وتعاقب الليل والنهار، لكل منهم جماله وأهميته كالحياة والتجارب والفشل والنجاح، عالم الأضداد هو ما نتقلب بين ربوعه؛ فالثبات لا وجود له.

الآن وبعد تجربة حب فاشلة، وجدتني بكل هدوء أبتعد عن كل ما يذكرني بها، فلم أتأثر كثيرًا لهذا الفشل؛ فما عهدت للبشر أي وفاء، وكيف يكون والقلوب تتقلب، كيف

أطلب الوفاء من قلب تتغير مشاعره مع مرور الأيام والمواقف؟ والجيد في انتهاء هذه العلاقة هو استعادتي لحريتي، التي اكتشفت أنها أثمن من أي شيء يمكن الحصول عليه.

الحرية شعور رائع يجعلك تحلق بلا أجنحة، كيف تشعر بأي مكسب وأنت تفقد حريتك، تفقد براعتك في التنقل بين الأفكار، فمن الصعب ألّا تملك الاستقلال في اختيار القرار، وأن تتخلى عن استقلالك من أجل أحدهم الذي في لحظة ما إما أن يظلمك أو يتركك؛ لأنه سيفضل يومًا أن يتحرر أو لأنه سيجد من يعطيه أكثر منك.

اليوم اتخذت قراري بالرحيل إلى فرنسا لأزور عدة مدن، والتي عاصرت أوج نشاط هذا الفنان الأسطوري (فينسينت فان جوخ)، والأهم أن أختتم رحلتي بالذهاب إلى بلدة (اوفير سور اوايز) التي احتضنت آخر أيامه.

قررت أن أخوض تجربة الحياة في الأماكن نفسها التي كان يعيش فيها، لربما وصلت لسبب الارتباط الغريب؛ فالجميع يرى التشابه الكبير في خطوطي ولوحاتي ولوحات جوخ، وليس هذا السبب الوحيد بل إنني كثيرًا ما ينتابني شعور غريب كلما أمسكت الفرشاة، شعور بأن يدي ليست ملكي، وتبدأ الألوان تنساب كأنما سلبت إرادتي وهناك من يتحكم بها.

بالبحث وجدت أن لوحاتي تسيطر عليها ألوان هذه المرحلة تحديدًا من حياته، مرحلة الحياة في الجنوب الفرنسي، عندما هرب إلى دفء الجنوب ليرسم الحقول المفتوحة والألوان المبهجة التي كان يحتاجها للتخفيف من نوبات الاكتئاب التي كانت تهاجمه نتيجة مرضه العقلي.

وصلت المطار متأخرة، توجهت إلى ضابط الجوازات لإنهاء الإجراءات، نظر الضابط برهة إلى صورتي ونظر إليّ ثم عاود النظر إلى الصورة وارتسمت على شفتيه ابتسامة، فقلت له: هل هناك أي بيانات غير واضحة؟

فزادت ابتسامته وقال: أبدًا الاسم واضح سارة علي، والعمل مهندسة ديكور، لا عليك فقط تبدين أصغر عمرًا من الصورة، فابتسمت له وشكرته وتركته والابتسامة تملأ وجهي، فقد كنت أشعر فعلًا بأنني فقدت بعض السنوات منذ أن استطعت الفرار من عدة أمور كانت تكبلني.

استقليت الطائرة وطوال الرحلة وأنا نائمة حتى وصولي إلى مطار باريس، بالرغم من شعوري بالإرهاق ولكنني كنت سعيدة بهذه الرحلة.

بمجرد وصولي استأجرت سيارة أجرة أوصلتني إلى فندق صغير، وضعت حقيبتي في الغرفة وألقيت نظرة سريعة من شرفتها التي كانت تطل على بعض المباني القديمة

التي ذكرتني بالمباني العريقة في مدينة الإسكندرية والقاهرة الخديوية، وفي الزاوية إلى اليمين وجدت برج إيفل بارتفاعه الشاهق وطلته الساحرة.

كانت السماء ملبدة بالغيوم ويغلب على المشهد اللون الرمادي مما ذكرني بمشاعر جوخ وسبب هروبه من هذا الجو الذي جعله حبيس الجدران لوقت طويل، ليرحل إلى شمس الجنوب لاحتياجه إلى ضوء الشمس للرسم في الحقول وسط الطبيعة الساحرة والمساحات الخضراء الشاسعة.

كان النهار ما زال في أوله، ولم أكن أملك وقتًا كبيرًا فأسرعت بالذهاب إلى متحف اللوفر حتى استغل كل دقيقة من رحلتي، وكنت في شوق إلى رؤية المتحف ومقتنياته.

وفي خلال نصف ساعة وصلت إليه وبالطبع كان أضخم من أن أراه في فترة تواجدي بباريس، فلم يكن لديّ سوى يوم واحد ولذا اكتفيت برؤية بعض من لوحات جوخ.

كان أجمل ما رأيته في حياتي لوحة (ليلة النجوم)، لم أتخيل أن تكون بهذا الجمال عند رؤيتها على الطبيعة! إنها مشهد رائع تمتزج فيه النجوم مع حالته النفسية! فقد رسمها وهو بمشفى (سان بول دي موسول) بسان ريمي، فكانت هذه النتيجة الرائعة من العطاء.

عدت إلى غرفتي بعد قضاء عدة ساعات بين لوحاته التي بعثت في نفسي شعورًا غريبًا بوجوده إلى جواري وبين لوحاته، وكان أغرب شعور عندما وقفت أمام لوحة رسمها لنفسه من ضمن العديد من البورتريهات الشخصية له، شعرت بأنه يقف أمامي وعينيه تنظران إلى أعماقي، وكأنني أسافر في عينيه إلى زمانه وأتجول في مشاعره المتضاربة نتيجة ما يعانية ويحاول مقاومته والتغلب عليه.

كنت محملة بكثير من المشاعر التي جعلتني أبحث أكثر عن معاناته بوصفه فنانًا وإنسانًا ومريضًا نفسيًا، كان يمر بحالات نفسية عصيبة تخيف جيرانة من سكان البلدة، كما حدث في آرل حين اضطروا لإدخاله المصحة النفسية التي كان يقبع بها عدة أسابيع، وأحيانًا كان يُمنع من الرسم الذي هو بمثابة الرئة التي يتنفس بها.

حاولت النوم فلم أستطع؛ فأحضرت دفتري وقلمي وحاولت الرسم، وكانت النتيجة بعض الخطوط غير المترابطة، شعرت بالملل فتركت الأوراق وخرجت إلى الشرفة، كان الطقس يميل إلى البرودة، وضعت الشال الصوفي على أكتافي وأخذت أنظر إلى برج إيفل وأضوائه، كانت السماء صحوًا تناثرت نجوم جوخ بها.

تذكرت ليلة أن قرر الذهاب إلى الجنوب وترك باريس، كانت ليلة لا نجوم في سمائها، شعر بأنه في سجن مكبل بالغيوم، امتنعت عنه الطبيعة فلم تمنحه ما يرجو من صفاء.

فقد كان أكثر ما يربطه بباريس هو ثيو أخيه المقرب لقلبه، ولكن الغيوم أجبرته على المغادرة حتى يخرج من عزلته للشمس والحقول.

زادت برودة الطقس فاضطررت للدخول وإغلاق الشرفة، عدت للقلم والورقة، نظرت للخطوط المبعثرة وفي لحظات وجدت أمامي لوحة مكتملة هي بورتريه لجوخ، كيف اكتملت الخطوط في ذهني، لم أفعل سوى أنني مررت بالقلم على الخطوط الباهتة التي رسمت أمامي أو بالأحرى رسمت في عقلي، أنهيت آخر خط وآخر انحناءة ثم نظرت لأجد عيناه تنظران لي بشغف وأسى وكادت أن تنطق شفتاه، وسمعت همس في أذني يقول: ارحلي من هنا إلى الشمس والحقول كدت أن أتجمد من اللون الرمادي لون الغيوم.

أخذت أتلفت حولي فلم أجد سوى عينيه تشقان صمت الليل والسكون ترجوني الرحيل.

كانت الساعة تسير ببطئ شديد، فجلست على السرير واتكأت على الوسادة وأنا ممسكة بصورته حتى شعرت بالنعاس فوضعتها بجواري ونمت، فأيقظني شعاع الشمس الذي أطل على من الشرفة فنظرت إلى صورته والشعاع يغمرها وابتسمت، ثم استبدلت ملابسي وتركت الفندق إلى محطة القطار لألحق بالقطار الذي سيقلني إلى الجنوب؛ لأمسك بشعاع الشمس الذي تعلق به جوخ في آخر سنوات عمره بعد أن خلد حقول الجنوب في لوحاته.

جلست بجوار النافذة اتطلع إلى الطريق لأعيش مشاعر جوخ وهو هارب من الضباب إلى النور والحقول الخضراء والبيت الأصفر الذي كان يحلم به ليجتمع به أكبر عدد من الفنانيين التشكيليين.

وصل القطار إلى مدينة آرل في التاسعة، حملت حقيبتي ونزلت وكنت أشعر ببعض الدوار من السفر، استقبلتني الشمس وكانت ساطعة دافئة، وقفت أمام البوابة دقائق قليلة وجدت شخصًا ينظر لي وهو يقول بصوت مرتفع: هل تحتاجي تاكسي مدموزيل؟

فأجبته: نعم من فضلك، خذني إلى فندق (دو فورام)، وهو فندق يقع في قلب المدينة القديمة.

وصلت إلى الفندق استقبلني شاب أنيق يتحدث أكثر من لغة، وهو يتحدث العربية بطلاقة ولكن بلكنة أهل الشام، أنهيت إجراءات الإقامة وأوصلنى لغرفتي، وكانت بسيطة ذات أثاث عصري وضعت الحقيبة وأخذت أتفقدها، كانت تطل على حمام للسباحة صغير.

كان في ركن الغرفة كرسي كبير عليه وسادة بجوارة منضدة عليها تمثال على شكل برج إيفل به إضاءة خافتة، فأغلقت الستائر وأضأت برج إيفل، جلست على المقعد وكان مريحًا أسندت ظهري إلى وسادته وأغمضت عيني وبمخيلتي صورة غرفة جوخ

كما رسمها في اللوحة بطابعها الياباني بلا ظلال وبجدارها المائل، فما أكثر الخيال في رحلتي هذه.

في المساء تجولت في طرقات المدينة وكانت مدينة جميلة، قابلت عدة سيدات مسنات كُنّ في محل لبيع الورود، تحدثت معهن عن جوخ واسترسلت إحداهن في وصف ما كان يعانيه من هذيان، وأنها كانت تهوى الرسم، وتعتقد أنها قد أصابتها لعنة جوخ من كثرة حديثها عنه حتى أصبحت لا تستطيع الإمساك بالفرشاة، ولكن صديقاتها ضحكن منها وأبلغوني بأنها مصابة بورم صغير بالمخ، وأنها أحيانًا تهذي بكلام غير مفهوم، وضحكت لأنني جئت خصيصًا خلف شيء شبيه بهذا، ولم أفصح لهن عن السبب الحقيقي لزيارتي حتى لا يسخروا مني أيضًا، فربما تكون هذه السيدة محقة في تخيلاتها أو أكون أنا من تهذي.

عدت إلى الحجرة أبحث في أوراقي عن رسائله لثيو أخيه الذي كان سبب حضور جوخ من هولاندا إلى فرنسا حيث يقطن بباريس هو وزوجته وأولاده، وفي النهاية وجدت إحدى رسائله عن حادثة قطعه لأذنه، قال فيها:

«اليوم شكلّت وجهي من جديد، لا كما أرادته الطبيعة، بل كما أريده أنا.

عينان ذئبيتان بلا قرار، وجه أخضر ولحية كألسنة النار، كانت الأذن في اللوحة ناشزة لا حاجة بي إليها، أمسكت الريشة، أقصد موس الحلاقة وأزلتها.. يظهر أن الأمر اختلط علي بين رأسي خارج اللوحة وداخلها.. حسنًا ماذا أفعل بتلك الكتلة اللحمية؟

أرسلتها إلى المرأة التي لم تعرف قيمتي وظننت أني أحبها.. لا بأس فلتجتمع كل الزوائد مع بعضها.. إليك أذني أيتها المرأة الثرثارة، تحدثي إليها.. الآن أستطيع أن أسمع وأرى بأصابعي بل إن أصبعي السادس «الريشة» ليستطيع أكثر من ذلك، إنها ترقص وتداعب بشرة اللوحة».

بعد قراءتي لهذه الرسالة شعرت بألم شديد في أذني اليسرى، وبدون وعي أسرعت إلى المرآة أنظر إلى أذني فوجدت الدماء تغطي رقبتي وملابسي، ووضعت يدي على أذني فلم أجدها فصرخت بأعلى صوتي، فاستيقظت فجأة وأدركت أن النوم غلبني وأنا أقرأ الرسالة. مرة أخرى أمسكت القلم وأخذت أضع الخطوط كما ارتسمت في مخيلتي، فإذا بوجهه مرة أخرى يطل علي، وقد غطت جانب وجهه ضمادة جراء قطع أذنه.

كنت أدرك أنني لست في حالتي الطبيعية، وأن ما يحدث ما هو إلا انعكاس لتعلقي به وتعاطفي مع مرضه، ولكن متى سأستعيد حياتي وانفصل عنه؟ متى سأرسم بفرشاتي من خيالي لا من خياله أم إنني أتمسك به لعلة في نفسي؟

انتهت أيامي في آرل وذهبت إلى بلدة (أوفير سور أوايز) التي شهدت آخر أيام حياته، وجدت غرفة صغيرة بفندق متواضع، ومنذ وصولي إلى هناك وأنا أتجول بالبلدة وأتحدث مع أهلها عن قصة انتحاره في الحجرة رقم خمسة من الفندق الذي كان يقطن به وعن لوحاته التي رسمها هناك، فقد قضى بعض الوقت في حالة نفسية رائعة رسم خلالها لوحة (الدكتور غاشي) ولوحة (الكنيسة في اوفيرس) قبل أن تسوء حالته مرة أخرى.

وهناك التقيت بألبرتو، رسام تعرفت عليه عندما بحثت عن معلومات عن جوخ أعطاني صاحب الفندق عنوان مرسمه، وقال إن ألبرتو من أكثر الفنانين المولعين بجوخ، فذهبت إليه لأجد أمامي جوخ جديدًا، كان يشبهه إلى حد كبير، له نفس قسمات وجهه الحادة وحساسيته المفرطة وكان طيب القلب، نقي، خجول، أصبحت أقضي معظم يومي معه وكثيرًا ذهبنا إلى الحقول ورسمنا المناظر الطبيعية وشعرت بتحرري من جوخ، تأكدت أن ارتباطي به لم يكن سوى هروب من واقعي.

لقد أحدث لقائي بألبرتو تغيرًا كبيرًا، فقد اكتشفت أنني كنت فاقدة الثقة في البشر، وقد تغير هذا الإحساس عندما تقربت منه ولمست صدقه ونقاء سريرته بجانب نشاطه وحبه للحياة وثقته في نفسه.

وقبل سفري بأيام قليلة فاجأني بفكرة البيت الأصفر وأنه يحلم بإعادة إحيائه، وكنت سعيدة عندما استأجرنا منزلًا قديمًا وأعدنا طلاءه باللون الأصفر بتصميم جوخ

نفسه، ودعا أصدقاءه من الفنانين إليه واستجاب له عدد كبير، وبدأت الحياة تدب بالبيت الأصفر وقضينا أوقاتًا رائعة مع الجميع، وكانت النتيجة معرضًا كبيرًا أحياء للبيت الأصفر ولفن جوخ.

انتهت مدة إقامتي بفرنسا وحان وقت العودة، ودعت ألبرتو الذي كان حزينا لرحيلي ووعدته بالعودة وقتما أستطيع، عدت إلى بيتي وقلبي مهاجرًا إلى الشمس هناك في الجنوب الفرنسي، وبدأت أشعر بتسلل اللون الرمادي إلى قلبي من جديد وكأن الغيم قد ملأه، لم يكن يخرجني من معاناتي سوى العمل واتصال ألبرتو فقد كان يشاركني أحداثه كل يوم.

مع كل هذه المشاعر الطوفانية التي تجتاحني بعد كل اتصال إلا أن إحساسي بما أنجزته مع ألبرتو لم يكن قليلًا، وكأنما ساعدت روح جوخ أن تهدأ وتستريح بإحياء البيت الأصفر من جديد، أما أنا فقد منحني ألبرتو بداية جديدة للانطلاق بإيجابية وإقبال على الحياة.

الخروج من التابوت

أعيش ببلدة صغيرة يحكمها كعالمنا العربي العادات والتقاليد القديمة التي توارثناها عن جدودنا من قديم الزمان، أحيانًا نربطها بالدين وأحيانًا نربطها بقوميتنا، وهي في رأيي لا تمت بصلة لأي شيء إلا مصالح البعض فقط.

الفتاة في الشرق وفي المناطق العشوائية والبدوية خاصة تملك النصيب الأكبر من مأساة أفكار الجاهلية، حيث لا يعترف بها كإنسان مكتمل بل يعَدُها مجرد عالة على الرجل، ومع هذا تتحمل العبء الأكبر داخل البيت وخارجه، وبالوقت نفسه هي تتحمل الانتقاد المستمر والإذلال لمجرد أنها خلقت فتاة، وبالرغم من أن المرأة الآن تتعلم وتعمل وتنجح في مجالات كثيرة تعتمد على العقل، ما زال الرجل يزن الأفضلية

بما كان قديمًا بالنوع أولًا ثم بقوة العضلات ثانيًا، أو بادعاء القوامة بفهمها الخاطئ بأنها منحة إلهية تمنح للذكور وليست عملًا واجتهادًا ورعاية.

أما عن تجربتي، فقد اجتزت كثيرًا من المعاناة حتى نجحت مع التحفظ على نظرة بعض الأشخاص الذين يصفونني بالمتهورة والمتحررة والسافرة، ولكنني اعتدت على ذلك، وأصبحت أرى أن هذه الصفات ما هي إلا أحجار يضعها البعض في طريق النجاح لعدم قدرتهم على الخروج من التابوت.

لقد نشأت في قرية صغيرة في الريف، في بيت متواضع، والدي موظف بالحكومة، وظيفته متواضعة، أما أمي متفرغه لتربيتنا، أما نحن أربعة أبناء وأنا البنت الوحيدة، وكانت أمي حريصة على تربيتنا تربية محافظة وتهتم بالأخلاق الحميدة وتحثنا على الصدق والفضيلة، ولكن الأمر مختلف بالنسبة لي فكانت وصاياها تحس على الخضوع والخنوع لكوني فتاة لا حيلة لها، ولأنني أعَدُّ عورة من رأسي حتى قدمي؛ ففرضت علي كثيرًا من القيود التي عدتها أمي من أخلاق البنت المحافظة، فارتديت الحجاب منذ طفولتي وأحكمت غطاء الرأس حتى لا أدخل النار، أما صوتي لا بدّ أن يكون منخفضًا ولا يسمعه أحد، وخروجي من البيت لا يتم إلا بقيود كثيرة، وأهمها عدم الخروج وحدي حتى لا تفترسني الذئاب البشرية، وكنت لفترة طويلة أعيش بداخل

الشرنقة التي تمنعني من رؤية العالم الخارجي وإلا أصبحت آثمة من المجتمع ومن الله، وكأن لكوني فتاة فقط فجزائي نار جهنم.

مرت السنوات وأنهيت تعليمي الجامعي تحت هذه الضغوط من الجميع، حتى تقدم لخطبتي شاب متدين المظهر وليس الجوهر، وهذا ما تأكدت منه مع الوقت بعد مأساة حقيقية عشتها معه.

فقد أقنع أهلي بمدى صلاحه حتى وافقوا على زواجي منه، وظننت أنني سأحصل على حريتي التي سلبت مني في طفولتي وصباي، وأنني سأعيش حياة سعيدة مع زوج محب يعرف ربه، وسأصبح سيدة نفسي في ظل حبه ورعايته، ولكن ما حدث هو العكس تمامًا، فقد انتقلت من سيِّئ لأسوأ فقد كانت قوانين أمي وأبي وأخواتي نتاج ثقافة خاطئة، ولكن الأمر اختلف مع هذا الشاب؛ لإنه مثال المنافق الجاهل الكاذب، فكان خارج المنزل يظهر بمظهر التقوى والصلاح ولا يتخلف عن أداء الصلاة في المسجد ويصوم أغلب أيام السنة، إلا أنه كان على العكس في المنزل كثير السباب، كاذبًا، وكثيرًا ما ينهرني بدون داعي، كان عنيفًا في ردود أفعاله، ولا يهتم إلا برغباته فقط، فكنت مجرد خادمة مطيعة لا يسمح لها بأن تفكر أو تعلق أو يكون لها رأي في أي قرار، كنت كالجارية في زمن اختفت منه الجواري إلا في قصص الأساطير.

كلما ضاق صدري بما أتعرض له كنت أذهب إلى أمي أشكو لها ما يفعله، ولكنها دائمًا تبرر أفعاله وأنا التي يجب أن تتحمل، وتحاول إسعاده، وتحمل كل متاعب الحياة ما دام يعمل ويصرف على البيت.

مرت سنوات وأنا على هذا الحال وكل يوم تسوء حالتي، كرهت حياتي وكرهته؛ فقد أصبح قيدًا في عنقي.

وزاد حزني بسبب عدم إنجابي حتى وجدت أن هذا أفضل ما حدث لي حتى لا يربطني به، حتى جاء اليوم الذي امتلأ الكوب لآخره، ولم أستطع مواصلة الصمت فانفجرت، أخذت أصيح كالمجنونة فانهال علي بالضرب والسباب، فدفعته بقوة وفتحت الباب وخرجت مسرعة أجري إلى الطريق وأنا في حالة هستيرية لا أكاد أرى أمامي من تزاحم الدموع التي حاولت السيطرة عليها دون جدوى، ونظرت خلفي فوجدته يخرج من البيت وينظر يمينًا ويسارًا بحثًا عني، فاختبأت في منزل مجاور حتى رأيته عائدًا إلى البيت في يأس، وكنت أعلم أنه سيهرول إلى بيت أبي، وكان هذا هو الخيار الأخير الذي سأختاره لعلمي أنه لن ينصفني أحد هناك.

انتظرت حتى رأيته يغادر بالسيارة، وبعد أن ابتعد خرجت بحذر وأنا أخفي وجهي بطرحتي حتى لا يراني أحد كأنني هاربة من وحش كاسر، واتجهت إلى الطريق العام ومشيت كثيرًا وأنا لا أعلم إلى أين أتوجه، وفي هذا الظلام الذي خيم علي تذكرت

الإنسانة الوحيدة التي ساعدتني كثيرًا وشعرت معها بأنني إنسانة مكتملة ذكية وقوية، إنها أستاذة الرياضيات في المدرسة الثانوية، التي كانت ترى أنني متميزة وأن عقلي يتمتع بذكاء غير عادي.

كان بيتها على مقربة مني ولم أجد خيارًا آخر للذهاب إليه، فتوجهت على الفور لمنزلها وكنت أتمنى أن أجدها، وصلت إلى منزلها، طرقت الباب وقلبي ينتفض خوفًا ألّا أجدها.

وبعد قليل فتح الباب شاب فارتبكت قليلًا، وسألته في صوت منخفض:

هل أستاذة ملك موجودة؟ فأجاب نعم، موجودة لحظة واحدة، وأخذ ينادي:

ماما.. ماما.

وبعد لحظة خرجت أستاذه ملك وهي تبتسم وما إن وقع نظرها علي حتى تغيرت ملامحها ودهشت، فقد كنت في حالة من الانهيار ارتعد من شدة الخوف، وحين رأتني في هذه الحالة أمسكت بي واحتضنتني برفق وحنان وأدخلتني، قصصت عليها ما حدث منذ رأيتها آخر مرة إلى الآن، وكعادتها حاولت أن تعيد ثقتي بنفسي، وتؤكد أنني

أستطيع الخروج من هذا الضيق، ثم وعدتني بأنها لن تتركني حتى أحصل على حياتي التي أريدها وأستحقها.

مر أسبوع كامل ولا أحد يعلم بمكاني، لم أكن أرغب في العودة نهائيًا؛ فالجميع لا يروني سوى نصف إنسان لا يملك أي حقوق مجرد تابع، أفكار عقيمة نشأنا عليها منذ الصغر.

كانت الأستاذة ملك تعيش وحيدة بعد زواج ابنها الوحيد وانتقاله لبيته، وكانت الأيام التي قضيتها معها من أجمل أيام عمري، بالرغم من خوفي مما ينتظرني إلا أنها كانت تحاول أن تخفف عني حتى أستطيع الصمود في مواجهة ما أنا مقدمة عليه.

وجدت الحل الأمثل هو مغادرتي هذه البلدة، استخرجت بدل فاقد لبطاقة الهوية وسافرنا إلى القاهرة، أقمنا بمنزل عائلتها التي تملكه بعد وفاة والديها، لم يعلم بمكاننا سوى جمال ابن أستاذة ملك، وهناك ساعدني جمال في الحصول على وظيفة سكرتيرة لدى صديقه منير الذي كان يملك مكتب توكيلات تجارية، وبعد انتهاء العمل أذهب إلى الجامعة الأمريكية؛ فقد التحقت بدورات لتعليم الإنجليزية.

ومرت الأيام وخلالها تحدثت مع والدتي هاتفيًا، طمئنتها أنني بخير، وعرفت منها أن زوجي طلقني، وأن إخوتي غاضبون جدًا مما فعلت، وحاولوا البحث عني كثيرًا

ويتوعدونني إن عدت، وكانت تحدثني سرًا وتتمنى لي الخير والنجاح، ولكني لم أبلغها عن مكاني ولم أذكر لها شيئًا سوى أنني بخير وأعمل، وأطمئنها على أني لم أنحرف عن الصواب كما يرى طليقي وأخوتي.

كانت الأيام تمر وأنا في سعادة فقد زالت قيودي التي كانت تشعرني بالمهانة، أما الآن مع صعوبة ما أواجهه فإن الحياة لها مذاق آخر، فكل يوم يمر ازداد خبرة وثقافة، وكانت أستاذة ملك تخصص يوم عطلتي لزيارة المتاحف والمعارض الفنية أو للسينما أو المسرح، حتى رأيت الحياة بطعم ولون مختلف وتعلمت أشياء كثيرة، وكثيرًا ما كانت تحضر لي الروايات حتى أصبحت إنسانًا آخر، إنسان متكامل لا ملاك ولا شيطان، إنسان ولست نصف مخلوق؛ فالحياة لمن يجتهد لا لمن يستسلم، فهي كالرحى تطحن الضعفاء، ولا بدّ من القوة لكي نكون.

ولحسن حظي وجود شخصية مثل أستاذة ملك وإلا كنت انتهيت مثل الكثيرات مثلي اللاتي يقضين حياتهن في الظلام، لا يراهم أحد ولا يسمع شكواهم أحد، ويضيع عمرهم في وهم الطاعة العمياء لرجال مرضى بتراث عقيم وعادات زالت من الوجود من مئات السنين ولكنها ما زالت عالقة بعقولهم.

كان منير شخصًا جادًا، محترمًا يعاملني بمنتهى الاحترام، وكان يوكل إلي الأعمال التي تتطلب مهارة في التعامل؛ فقد كنت أجيد التعامل مع العملاء، واكتسبت بذلك خبرة وثقة كبيرة.

أصيب منير في حادث سيارة ودخل في غيبوبة لعدة أيام، وكنت أدير العمل إلى أن حضر أخوه سامح، الذي أراد الاطلاع على الحسابات السرية للمكتب فرفضت؛ فقد كنت على علم بخلافه مع أخيه، وبدأت مضايقات سامح تزداد، كان يأتي ليجلس بالساعات بالمكتب، وكنت أحاول إخفاء المعلومات المهمة عنه ولكنه تمادى في مضايقاته، حاول إغرائي بالحب مرة وبالمال مرة ولكنه فشل حتى علم ألّا فائدة من محاولاته.

كانت إصابة منير في الجمجمة بسيطة، ومع هذا مكث في الغيبوبة لمده أسبوع كامل ظل خلالها بالرعاية المركزة، ثم تحسنت حالته وانتقل لغرفة عادية بالمشفى لاستكمال العلاج.

ذهبت عدة مرات للاطمئنان عليه، وبعد علمي بأن حالته تحسنت ذهبت لاطلاعه على بعض الأعمال التي يصعب علي اتخاذ القرارات بها، سألني عن سامح فأبلغته بزياراته المتكررة للمكتب ولكنني أخفيت عنه الحقيقة وطمأنته على سلامة العمل، ووعدني بأنه خلال أيام سيبدأ بالحضور إلى المكتب لبعض الوقت.

بدأت الحياة تعود إلى طبيعتها وعاد منير للعمل مرة أخرى، وبعد عدة أيام إذا بشخص يدخل مكتبي شخص تمنيت الموت على رؤيته، أخي الكبير زيد، لم يكن يومًا يمثل لي سوى قيد يسلبني معنى الحياة يسعى دائمًا لوأد إنسانيتي، لا يتعامل إلا بلغة القوة ولا يستخدم عقله أبدًا، وحين رأيته يقف أمامي شعرت أنني أتهاوى وأن كل أحلامي ضاعت.

وبدون أن ينطق بكلمة صفعني على وجهي صفعة أطاحت بي على الأرض، ثم جذبني من شعري وأكمل ما جاء من أجله، وأخذ يضربني بكل وحشية حتى أصابني بالإغماء، وكنت أتلقى صفعاته وأنا صامتة، وكان صمتي يذهب عقله فيزداد وحشية حتى خرج منير من مكتبه، فأسرع بإمساك يده وألقاه خارج المكتب بمساعدة الأمن الذين أمسكوا به، طلب سيارة الإسعاف وظل معي طوال هذا اليوم حتى استعدت وعيي.

أصبت بارتجاج بالمخ وكسر في اليد اليسرى وجرح غائر في الجبين، وبقيت في المشفى لعدة أيام حتى بدأت حالتي في التحسن، وكانت أستاذة ملك تزورني كل يوم، أما زيد فقد اتهمه رجال الأمن بمحاولة قتلي، ولكن عند سؤالي أنكرت أنه ضربني، وادعيت أنني تعثرت وسقطت على الأرض لأنهي علاقتي بالماضي بأكمله، ولكن بعد ما حدث أصبح المستقبل مجهولًا بالنسبة لي فكيف أكمل حياتي بعد ما حدث، وأنا

متأكدة تمامًا أنه لن يتركني إلا جثة هامدة، وأستاذة ملك لا أريد أن أرد لها الجميل بأن أتسبب في إلحاق الأذى بها.

في الصباح حضر منير لزيارتي، وأخبرني أن سامح أخيه كان وراء هذا الحادث، فقد عرف من بياناتي مكان عائلتي، وكان يعلم بأنني تركت أهلي فذهب إليهم ووشى بمكاني حتى يستطيع إبعادي والانتقام مني لأنني لم أعطه ما يريد، وأخذ منير يعتذر لي عما بدر من أخيه، وأخبرني أنه ظل يفكر في ما حدث حتى توصل لحل قد يضمن سلامتي، وكان اقتراحًا جيدًا.

أبلغني بنيته فتح مقر في دبي، مشكلته عدم وجود من يصلح لإدارته، وكان بالنسبة لي طوق نجاة تعلقت به، فوافقت على أن يبقي هذا الأمر سرًا خشية علم سامح بالأمر فيبلغ زيد مرة ثانية.

بعد حوالي شهر كنت قد شفيت تمامًا، سافرت إلى دبي، وكانت المرة الأولى التي أسافر فيها خارج مصر، كانت مواجهة صعبة في البداية إلى أن تعودت على حياتي الجديدة، كنت أقضي يومي في العمل، وكان منير يأتي مرة كل شهر ليتفقد العمل.

أخذ المكتب في الاتساع حتى أصبح شركة كبيرة، فتطلب العمل السفر إلى الهند والصين فسافرت، ففتحت أمامي آفاق أرحب من الاضطلاع والمعرفة بالشعوب

والحضارات، وتعلمت عدة لغات ساعدتني في العمل وتحقيق طموحاتي، مما ساعدني كثيرًا أنني كونت صداقات ساعدتني وساندتني في التوسع في العمل.

عند حضور منير عرض عليّ أن أصبح شريكًا لا مجرد موظفة، ويكون لي حق الإدارة؛ فقد أصبح على ثقة تامة في خبرتي وحسن إدارتي للأزمات، فوافقت وامتلكت نصف الشركة وحق الإدارة وكان بالنسبة لي انتصارًا كبيرًا فاق كل توقعاتي.

وعندما كنت أختلي بنفسي كنت دائمًا أفكر بحياتي السابقة، وأحزن كثيرًا على فتيات مثلي كتبت عليهن هذه الحياة التي رفضتها ولم يستطعن الفرار منها، فقد حالفني الحظ بوجود أستاذة ملك التي أدين لها بوجودي ونجاحي؛ فهو ثمرة رعايتها وثقتها وإيمانها بقدرتي على النجاح.

ومن فتاة مضطهدة تحولت لسيدة أعمال معروفة، وبالطبع لم أصل لما أنا فيه بسهولة؛ فقد تعرضت كثيرًا لسوء المعاملة كوني امرأة تعيش بمفردها، فهناك الكثيرون الذين يحملون فكرًا مريضًا، يتوهمون أن المرأة عاهرة بطبعها، وتحتاج دائمًا لرجل يردها عن هذا العهر، فيحاولون غوايتها بشتى الطرق حتى تخطئ لتجد نفسها فريسة محطمة، وكنت أفهم هذا جيدًا؛ فأقمت حولي أسوارًا شائكة لا يتعداها أحد، فصنعت مكانتي بين الرجال حتى لقبوني بالمرأة الحديدية، فقد تعلمت كيف أتحكم في مشاعري فلا يتحرك لي ساكن مهما كانت المغريات، وعند عودتي لمنزلي أضع عن كاهلي ما أحمل من

متاعب وانفجر أحيانًا بالبكاء، وأحيانًا أرقص على الموسيقى الصاخبة، أو أصرخ أو أضحك حتى تهدأ ثورتي، وأعود مرة ثانية قوية لمجابهة الحياة.

هكذا هي الحياة إن أردنا النجاح وحفر أسمائنا في سجل الإنسانية، وكما كانت أستاذة ملك قدوتي، فقد صنعت من نفسي قدوة، ومن حياتي تجربة كثيرًا ما تذكرتها كلما وجدت فتاة تقاتل من أجل النجاح.

زهور الحب لا تموت

لست زهرة برية كما تراني، أسكن أعالي الجبال وحيدة، لست من ساكني السهول بين آلاف الزهور.

أنا بين الغصون أنمو مختبئة عن العيون لن تراني من بعيد، لا بدّ أن تقترب فأنا أحتاج للأرض والماء والجذور، إهمالك لي هو موتي.

فلست زهرة برية تتركها في ظمئها وتأمل في بقائها بمفردها حتى تتذكرها فتطالبها بنشر رحيقها حولك، أنا فرح وحزن وحب واحتياج، أنا بالأشواق أتلاشى، وبالعشق أتنفس، وبابتعادك أصبح زهرة جافة بين صفحات كتابك، فلا تطويني وكأنني رسم على ورق، حبر تناثر على ثيابك، لا تجرحني بأشواكك وقد نزعت عنك أشواكي،

ناديتك مرارًا بين أضلعي فما وصلني سوى صدى ندائي، هل تلاشيت أم اكتفيت من عطري فلم يعد لرحيقي وجود في حياتك؟

ما زلت في حيرتي من سبب مغادرتك حياتي، أتمنى أن أنساك لأبدأ من جديد، ولكن جذوري ما زالت تتمسك بأرضك، وما زال الأمل بعودتك لا يتركني لحظة، كيف تنسى ما حلمنا به!

حبك أسعدني وأشقاني، أخرجني من حياة البشر إلى حياة الزهور بعيدًا عن كل ما هو مادي، لقد أحببت روحًا نقية صادقة، ولن أتخلى عن حلمنا.

في أبريل الماضي كان لقاؤنا الأول، وقبلها كنت أعيش حياة هادئة مع أسرتي، أنهيت تعليمي الجامعي بتفوق، وكنت أهتم بالعمل العام فالتحقت بإحدى الجمعيات التي تساعد في تبادل الثقافات بين الشعوب، ومن وقت لآخر أسافر إلى إحدى الدول لتبادل المعرفة بعادات الشعوب.

سافرت في رحلة مع فريق عمل أرسلته الجمعية إلى دولة تونس، والتقينا بالشباب التونسي هناك، وكانت فرصة رائعة لمعرفة ثقافتهم عن قرب، تبادلنا المعلومات والأفكار وناقشنا كثيرًا من الأمور المتشابهة، وبعد انتهاء اللقاء تركت الفريق وذهبت إلى كافيه قريب وأخذت أبحث عن ترابيزة خالية، ولم أجد فقد كان المكان مزدحمًا

واستدرت وهممت بالمغادرة، وفي هذه اللحظة بادرني شخص بالدعوة إلى الجلوس على طاولته فقد كان يهمّ بالرحيل، فشكرته وجلست وجاء النادل وطلبت فنجانًا من القهوة بدون سكر، ولفت نظره طلبي فقد أنهى لتوه الطلب نفسه وعرفني بنفسه:

مهند من سوريا، أعتقد أنك مصرية؟

نعم، مصرية.

فأجابني بلهجة مصرية:

أحسن ناس أحفاد الفراعنة.

فضحكت لمحاولته التحدث باللهجة المصرية، وقلت له باللهجة السورية:

كيفك مهند إمنيح؟

فابتسم لمحاولتي مداعبته بطريقته نفسها، وقال:

قهوه بدون سكر والآن أسلوب المداعبة نفسه هذا كثير يا آنسة.

اسمي ندى.

أهلا آنسة ندى من وين بمصر؟

أنا من الجيزة.

ما شاء الله! كمان جارة أبو الهول والأهرامات.

نعم جارة أبو الهول والأهرامات، هل زرت مصر؟

نعم، أنا أتنقل بحكم عملي في عدة دول منها مصر وتونس.

وأنا أيضًا أتنقل كثيرًا بين عدة دول وسافرت إلى سوريا مرتين.

بعد هذا الدمار الذي لحق بها، هل أستطيع سؤالك عن سبب زيارتك لها؟

أنا أعمل في مجال تبادل الثقافات بين الشعوب، وكثيرًا ما أتنقل بين مراكز الثقافة بين الدول العربية.

مجال رائع ندى وكيف رأيتي سوريا؟

رأيتها كالطائر الجريح الذي يحاول التعافي من جراحه وتضميدها للعوده للطيران مرة أخرى.

أتمنى أن نتمكن من عبور هذا النفق المظلم، والجميل وجود تعاون بين الأفراد والشعوب؛ فأنا مؤمن بقدرة قطرات الماء من ثقب الصخور ما دامت متلاحقة ومتتالية، سعيد جدًا بمعرفة إنسانة مثلك تسعى وتجتهد لتبادل الثقافة والمعرفة، وأتمنى أن أشارك في هذا الجهد ولكنني أعمل بالتجارة ووقتي محدود جدًا.

ثم ساد صمت بيننا وشعر مهند بالحرج، وأعتذر أنه ما زال يجلس ووقف وحياني وابتسم، فقلت له سعدت جدًا بهذا الحوار، وأتمنى لك التوفيق في عملك وعودة سوريا لمكانتها كما كانت.

أنهيت قهوتي وعدت إلى الفندق وأكملت جولتي المقررة بين دور الثقافة والمتاحف ولقاءات الشباب التونسي، وتعرفت على أكثر من شخص سرعان ما أصبحنا أصدقاء فقد كنا نقضي معظم الوقت معًا.

مرت الأيام سريعًا وجاء ميعاد الرحيل، وذهبت إلى المطار برفقة صديقي وسيم التونسي ودعته وتركني عند البوابة، أنهيت الإجراءات وجلست في ساحة الانتظار فقد وصلت قبل موعد الطائرة بساعة، مر شريط الرحلة أمامي، وتذكرت مهند وأخذت أتساءل هل من الممكن أن أراه مرة أخرى أم كانت هذه هي المرة الوحيدة؟ وأسندت رأسي على المقعد وأغمضت عيني لحظات ولم أستغرق في النوم.

انتبهت على صوت بجانبي يهمس اسمي: ندى.. ندى، هل أنت نائمة؟ وفتحت عيني وأنا أشعر بمعرفتي لهذا الصوت وهذه اللكنة، فنظرت بجانبي فوجدته مهند، غمرتني فرحة شديدة لم أكن أعلم سببها، ربما لأنني كنت أتخيل أنني لن أراه مرة أخرى، فقلت:

مهند، أهلًا أهلًا، ماذا تفعل هنا وما هذه المصادفة؟

هلا، هي مصادفة سعيدة أم لا؟

بالعكس سعيدة جدًا، فقد كنت أفكر فيك للتو.

تفكري بي أنا كيف؟ وهل كنت تقولي الحمد لله أنني لن أراه مرة ثانية.

لا، بالعكس لماذا تقول هذا، كنت أتساءل هل سأراك مرة أخرى أم لا؟ وأصابتني الدهشة لأنني أراك الآن، هل أنت مسافر؟

نعم مسافر إلى مصر الآن، وطائرتي بعد نصف ساعة تقريبًا.

ضحكت ندى، وقالت:

وأنا أيضًا، كيف يحدث مثل هذه المصادفة أم أنك قاتل محترف تتبعني؟

بل معجب ولهان وعاشق حيران متيم بالأميرة الفرعونية ندى.

حقيقي مصادفة غريبة مهند.. ولماذا تذهب إلى مصر؟

أنا مهند فارس العلايلي، وعائلتي تمتلك عدة مصانع متفرقة في مصر وتونس، بعد أن ضرب الإرهاب سوريا بدأت مصانع العائلة في الخسارة ففكرنا بنقلها إلى دول أخرى حتى تنتهي هذه الأزمة لنعود مرة ثانية إلى سوريا، ونقلنا مصنعًا في تونس ومصنعين في مصر، وأنا أتنقل بينهم كلما استدعى الأمر، والآن أنا ذاهب إلى مصر لأتابع مصانع الملابس هناك، أما تونس فبها مصنع لعمل المفروشات.

وهل تسافر إلى سوريا؟

بالتأكيد أسافر كل شهر تقريبًا، فأكثر أفراد عائلتي هناك لم يتركوا منازلهم بالرغم من الدمار.

الله يحميكم وينصركم وتعود سوريا كما عهدناها من قبل.

أتمنى ذلك ولكنه لن يحدث بالتمنى بل بسواعد أبنائها، وهذا الإرهاب يحتاج يد قوية ووحدة الشعب خلف الجيش.

ولم يطل الحديث وصعدنا للطائرة نفسها، وللمصادفة الغريبة أن المقعد بجوار ندى خاليًا، فجلس مهند بجوارها وأكملا حديثهما حتى وصلت الطائرة إلى مطار القاهرة، وخرجا من المطار وطلب منها رقم الهاتف حتى يطمئن عليها من وقت لآخر، وأعطاها رقمه وافترقا على أمل في لقاء آخر.

عادت ندى إلى منزلها فاستقبلتها والدتها وجلست إلى جوارها تقص عليها تفاصيل رحلتها إلا لقاءها مع مهند، وكأنما كانت تريد أن تحفظه بقلبها فقط.

ومرت عدة أيام بدون أي رسالة أو اتصال حتى انتابها القلق عليه، واتصلت به ولكنها وجدت الهاتف مغلقًا.

كانت الساعات تمر ثقيلة، ولماذا هي شغوفة بمقابلته أو بالحديث معه؟ لم تجد إجابة فقد كان شعور خفي يربطها به ويجذبها نحوه.

لم تعد ندى تهتم بالعمل، أصبحت شاردة لا تهتم بشيء، حتى أصدقاءها لم تعد تراهم.

أين اختفى مهند؟ لماذا أخذ رقمها إن كان لن يطلبها؟ وهنا خفق قلبها بشدة أيكون حدث له مكروه، فهو كثير التنقل ويسافر إلى سوريا كل شهر هل يكون أصيب أو قتل، ولم تحتمل هذه الأفكار وقررت أن تجد طريقه للبحث عنه.

أسرعت إلى الإنترنت تبحث عن شركة باسم العلايلي، فوجدت موقع لمصانع العلايلي للمنسوجات والمفروشات والملابس الجاهزة، ولكنها وجدت المصانع قد أعيد نقلها إلى سوريا، فتعجبت كثيرًا فقد كان مهند معها من أسبوعين فقط، وقد قدم إلى مصر لمتابعة أعمالهم، وبعد أن شعرت بالأمل عادت مرة أخرى لحزنها وتعجبها فلقد كان يتحدث معها عن نقل المصانع في المستقبل، فكيف نقلها ولم يمر سوى أسبوعين، هل هو شبح أو خيال؟

عادت ندى لحياتها شيئًا فشيئًا في محاولة لنسيانه، وكانت تسافر كثيرًا وتتعرف على أشخاص جدد وفي كل مرة كانت تبحث عنه بين الوجوه لعلها تجده صدفة كما قابلته.

سافرت إلى تونس لحضور مؤتمر لثقافة الطفل، وهناك اتصلت بوسيم صديقها التونسي وذهبت للقائه وجلست معه أكثر من ساعتين تحدثا معًا في كل شيء حدث لهما منذ أن تركته، ولكنه شعر بتغيرها الكبير، وكان في حيرة وهو يرى شيئًا مختلفًا بها ولكن لا يلمسه، وأخذ يتفقد عينيها وهي تتحدث معه حتى لاحظت ندى، وسألته:

ماذا بك وسيم لماذا هذا الوجوم؟ أراك شاردًا تنظر إلي كأنك تراني لأول مرة.

الحقيقة صديقتي هناك شيء مختلف بك ولا أدري ما هو.

صمتت برهة وأغمضت عينيها، فبادرها وسيم محاولًا أن يبعد الحرج عنها قائلًا:

ندى نحن صديقان، وأنا أردت فقط الاطمئنان عليكِ، فلا تهتمي بما قلت وتابعي حديثك.

لا أعرف ماذا أقول ويسعدني أستمع لرأيك لأنني أحتاج إلى المساعدة.

أخبرته بما حدث ثم قالت: لا أدري ماذا حدث، لقد ترك بداخلي جزءًا من روحه ترك بصماته، لقد أصبحت أفكر بطريقته، ولا أنظر في وجه إنسان إلا وأراه أو أرى ملامحه، كل الأماكن تذكرني به بالرغم أنني لم أره إلا في المطار والكافيه، كل شارع مشينا معًا حتى المطر أسير تحته أشعر بوجوده يضحك مداعبًا إياي بقطراته، ماذا يحدث لي وسيم؟ بربك حاول أن تفهم وخبرني هل جننت أم مسني سحر ما؟

كان وسيم منتبهًا لكل كلمة أقولها وعندما انتهيت سألني عن اسمه واسم شركته محاولًا مساعدتي للبحث عنه، فأعطيته ما طلب وقال لي على ما يبدو أنك غارقة في الحب يا عزيزتي، والحب من أول نظرة وهو ليس غريبًا، فكثيرين قد حدث لهم هذا، ولكن اختفاءه هو الغريب كيف يختفي هكذا؟ ولماذا يطلب رقم هاتفك إن كان لا يريد الظهور في حياتك مرة أخرى؟

وعدني أن يبحث عنه بما توافر من بيانات أعطيتها له، صعدت إلى غرفتي وكان لدي كثير من العمل والتقارير التي علي إعدادها لتقديمها عند عودتي للقاهرة،

فجلست لعدة ساعات أعمل حتى طلعت الشمس وكنت في آخر تقرير وشعرت بإرهاق شديد جعلني أترك كل شيء وأنام حتى استيقظت على أذان الظهر، ثم ذهبت إلى اجتماع وهناك وأنا أتحدث سمعت هاتفي يرن فأغلقت الصوت وتركته بدون أن أرى من المتصل حتى انتهيت من اللقاء، وعدت إلى الفندق وهناك بحثت في الهاتف ولم أصدق عيني فقد كان هو المتصل، إنه مهند أخيرًا وبسرعة عاودت الاتصال به ولكن دون جدوى فقد أغلق الهاتف مرة أخرى، وانتظرت طيلة الليل وأنا ممسكة بالهاتف لم أفارقه، أضعه أمامي مخافة أن يتصل وأنا غافلة عنه حتى نمت وأنا ممسكه به ولم أستيقظ إلا في صباح اليوم التالي على اتصال من وسيم يريد مقابلتي وكان يجلس بانتظاري في صالة الفندق.

نزلت إلى صالة الفندق وكنت في حالة إعياء شديدة، وجدت وسيم يجلس أمامي أمسك بيدي وجلست على أريكة وجلس بجواري، وسألني:

ما هذا الإعياء الشديد الذي أراه، هل أنتِ مريضة؟

فابتسمت وقلت له:

لا، بل كنت أنتظر مكالمة هاتفية طوال الليل ولكن دون جدوى؛ ولذا لم أستطع النوم.

هل هي مهمة جدًا لهذه الدرجة حتى تظلي طوال الليل مستيقظة في انتظارها؟

نعم، يا وسيم، إنه هو مهند لقد اتصل وأنا في لقاء ولم أرد عليه، واتصلت به عند عودتي إلى الفندق ولكن هاتفه كان مغلقًا، فجلست طيلة الليل أنتظره.

كيف حدث هذا، مستحيل أن يحدث.

نظرت إليه ندى بدهشة، وقالت:

ماذا تقول يا وسيم لماذا تقول مستحيل؟ وسيم أرجوك أفصح عما تقصده هل توصلت لأي معلومة عن مهند هل وجدته؟ هل أصابه مكروه؟

استمعي جيدًا يا ندى، بالأمس ذهبت إلى صديق يعمل في الضرائب المفروضة على الشركات والمصانع، وسألته عن مصنع العلايلي وعلمت منه أنه بالفعل كان هنا ولكنهم نقلوا كل شيء إلى سوريا من سنة تقريبًا، ومعنى هذا أن ما حدثتيني بأمره إما أن يكون حدث قبل ذلك، وإما أنه شخص منتحل شخصية مهند، ولكن لا أعلم لماذا يفعل شخص كل هذا؟

زادت حيرة ندى وأخرجت الهاتف لتؤكد لوسيم الاتصال وبحثت عنه فلم تجد أي دليل على اتصاله وتعجبت، ولكنه حاول تبريره بأنها ربما تكون عن طريق الخطأ قد حذفته.

عادت ندى إلى غرفتها وهي لا تدري ماذا يحدث، ما كل هذا الغموض، وكيف تعيش قصة حب مع شخص كل بياناته بالماضي!

وفي اليوم التالي عادت ندى إلى مصر ومعها ذكرياتها وحيرتها، هل تحاول البحث عنه أم تكتفي بهذا القدر من الغموض؟ وكيف تنتزعه من قلبها بعد أن استقر به؟

وجلست ندى مع أمها تحاول أن تجد لديها حلًا ينهي ما ألم بها من حيرة، فنصحتها أمها ألّا تتخلي عن حبها حتى وإن كان مجرد سراب، فكلما حاولت الهروب منه يلاحقها ولن تخرج منه أبدًا، فزادها هذا الحديث حيرة على حيرتها كيف تبحث عن سراب!

لكنها قررت أن تقطع كل شك وذهبت في الصباح إلى الجمعية تسألهم عن أقرب رحلة إلى سوريا، وطلبت من المشرف إدراجها بها، وبعد عدة أيام وصلتها الموافقة على طلبها، فقد أعتذر زميل لها عن السفر واستطاعت أن تسافر مكانه، ووصلت ندى مع الوفد إلى مطار دمشق، وهناك قررت ألا تعود إلا وهي تعرف كل شيء عن مهند،

وذهبت إلى صديقتها حلا السورية وطلبت منها أن تعاونها في إيجاد مكان أي عمل يمتلكه عائلة العلايلي.

بحثت صديقتها عن أي معلومة حتى وجدت قريب لها يعمل في مصنع للملابس الجاهزة يدعى مصنع العلايلي وسألته عن مكانه، وفي الصباح ذهبت ندى إلى مقر الإدارة وكانت قريبة من مكان إقامتها، هناك سألت عن أي فرد من العائلة وأخذها عامل إلى مكتب مدير المصنع، جلست ندى بمكتب السكرتيرة حتى ينتهي من اجتماعه وكانت دقات قلبها متسارعة ومرت الدقائق بطيئة حتى وجدت الباب يفتح وخرج منه شخص وهو يتمتم بكلمات شكر، ونظرت خلفه فتوقفت الدقائق وساد بداخلها صمت رهيب، فقد وجدت مهند ولكن بشعر أبيض كأنما ذهب برحلة إلى المستقبل تخطت الثلاثين عامًا أو يزيد، ونظر مبتسمًا، وتدخلت السكرتيرة قائلة:

الآنسة في انتظارك تريد المقابلة.

نهضت من مكاني وأنا أشعر بدوار، دخلت إلى المكتب، أغلق الباب خلفي وكان مكتبه بسيطًا، دعاني للجلوس أمام مكتبه فاستدرت لأجلس، وإذا بعيني تقع على صورة كبيرة لمهند فتسمرت في مكاني ودموعي تغطي وجهي وأنا أنظر إلى صورته، فقال:

تفضلي آنسة ارتاحي وأخبريني سبب بكائك، هل كنت على صلة بابني؟

هل هو ابنك؟ نعم، أعرفه جيدًا، فأنا أبحث عنه منذ عدة شهور ولم أعثر له على أي أثر، والآن عندما رأيت صورته لم أتمالك نفسي.

آنسة كيف تعرفتي عليه؟ أرجوكِ أولًا اسمحي لي أن أتعرف عليكِ.

ندى إبراهيم، مصرية، جئت مع وفد مصر الثقافي لمتابعة بعض النشاطات الثقافية، وفي الحقيقة أنا التي طلبت الحضور للبحث عن مهند.

أهلا بك في بلدك، وأنا سعيد جدًا بلقائك، ولكن أحب أعرف كيف تعرفتي على مهند ومتى؟

لقد كنت في رحلة شبيهة ولكن بتونس، وقابلته مصادفة من ستة أشهر؛ أي بشهر أبريل الماضي.

كيف يا صغيرتي يحدث هذا؟

ماذا تقصد بكيف، ألم يكن لكم مصنع مفروشات هناك؟

نعم، كان لنا ونُقل من سنة.

وهذا ما وصلت إليه وزادني حيرة، ولكننا سافرنا سويًا إلى مصر ليباشر متابعته لمصانع الملابس بمصر، وأخذ رقم هاتفي وأعطاني رقمه ولكن منذ ذلك الحين لم يردني منه أي خبر، والآن جئت أبحث عنه هنا لأني أخشى أن يكون قد أصابه مكروه، فأرجو أن تطلعني عن مكانه أو تأخذني إليه.

أنا في أشد حالات العجب من حديثك هذا، إذا سمحت لي ممكن أن تطلعيني على رقم الهاتف الذي أعطاه لك.

نعم، تفضل.

ونظر وقد زادت دهشته ودمعت عيناه، وهو ينظر ولم يتمالك نفسه ونظر إلى السماء، وقال بصوت مرتفع:

يا الله، يا واحد، يا قادر على كل شيء.

فزعت ندى وصاحت:

– ماذا حدث؟ أرجوك أنا لم أعد أستطيع التحمل، فوقف وقال لها؟

تفضلي معي سأخذك له تفضلي إلى سيارتي، لا تخافي أنا والده وحالا سأخذك إليه.

جلست بجواره وسار حتى وصلت إلى آخر مكان كانت تتمنى أن تجده به، وقفت السيارة وفتح لها الباب ونزلت ندى ومشت خلفه صامتة حتى وصلا إلى قبر كتب على شاهده "مهند فارس العلايلي وتاريخ الوفاة ١٥ أبريل ٢٠١٥"، وقال لها:

كما ترى فقد توفي ابني من عدة سنوات، وهو يقاوم الإرهاب مدافعًا عن والدته وأخته، فقد قتلوه بعدة طلقات في صدره، ولا أدري كيف حدث ما حدث؟ وبالرغم من أنني أصدقك ولكن يعجز العقل عن إيجاد تفسير لما حدث.

جلست ندى بجوار قبره تبكي وهي لا تدري كيف يحدث هذا؟ هل هو خيال اختلقته؟ ولكن كيف تعرفت على شكله واسمه ورقم هاتفه؟ وهل لقاؤها كان وهمًا أو سرابًا؟

وبالرغم من أن حيرتها ازدادت لكنها عاشت باقي حياتها تحمل بداخلها حياة أخرى، حياة مهند وروحه التي طافت الوجود لتستقر في قلبها؛ فالأرواح لا تعترف بالمسافات، لها قوانينها الخاصة لا يوقفها أي عائق.

وأصبح حبها الدفين الغريب حياة دفء لقلبها، وأصبحت على صلة وثيقة بعائلة مهند، فقد آمنوا بأن ولدهم بالرغم من رحيله عن الحياة إلا أنه وجد الحب في قلب

ندى، فقط اكتفت عائلته بأن روحه وجدت الحب والسكنى في قلبها فأحبوها وتعلقوا بها.

وظلت ندى أسيرة هذا الحب الذي سقى روحها وكأنها زهرة أمطرتها السماء يومًا، فلما نمت ضنت عليها بالماء وتركتها تعيش حلم الارتواء.

وعاشت ندى تحلم به وتتمنى لقاءه وهي تعلم أنها تتمنى المستحيل، حتى أصبح الحلم هذيانًا ولم تبالِ، فليكن هذيانًا ما دامت ستلقاه.. فما فائدة الحاضر بدون الأمل في المستقبل وإن كان في حياة أخرى غير هذه الحياة

نسمات خريفية باردة

في أوائل الخريف مع بداية هبوب النسمات الباردة تعم النفس حالة من الحنين أقرب ما يكون إلى تسليط ضوء على ذكريات عبرت وأسدلنا عليها ستائر النسيان حتى نمضي في الحياة بعيدًا عن هذه الجروح الغائرة في النفس، ولكن ما إن يأتي الخريف حتى تعود هذه الجروح في الظهور من جديد، وربما ظهورها على السطح خير دليل على أننا ما زلنا على قيد الحياة.

في اليوم الأخير من شهر سبتمبر فيما أجلس مسترخية وردتني رسالة على هاتفي، وكانت من إنسان كان يومًا يعني لي كل شيء، كنت أتنفس عشقه، أما الآن فهو ماضٍ وجرح ومجرد رسالة.

لم أتوقع أن يراسلني مرة أخرى، فقد هرب عند أول عثرة قابلتنا وتركني وحدي أواجه الأيام الثقيلة، كانت الرسالة شحيحة الكلمات قوية المعنى، كانت عبارة مختصرة وهي: لم تعد لي حياة من يوم رحيلي.

منذ عام كنت أتمنى أن تصلني هذه العبارة ولكن الآن أصبحت رمادًا منثورًا يخنقني استنشاقه، أخذت أتذكر كيف رحل بدون كلمة، لم يلتفت خلفه إلى من تشاركه هذا الألم بل قرر المضي في حياته، وصرت مهملة كقطعة أثاث في منزل مهجور أطفأت أنواره وتراكمت الأتربة فوقه.

أخذت أنظر إلى حروف الرسالة وأتفحصها حرفًا حرفًا، وأنا أرى أمامي عينيه العسليتين التائهتين في بحر عميق، وتذكرت كم كنت كثيرًا أرمي لهما غصنًا لأنقذه حتى أغرقني وتركني ولم يلتفت، ماذا أفعل هو ما زال يرقد في أعماقي؟ كل الرجال في نظري دُمًى متحركة.

أخذت أسترجع أيامي منذ رحيله، بدت الدقائق ثقيلة كالجبال، شعرت بالمرض يدب في أوصالي، اغتربت حتى عن نفسي.

أخذت الأيام تتوالى ثقيلة حتى ذهبت يومًا أطبع بعض القصص التي كنت أكتبها؛ فأنا مغرمة بكتابة القصص منذ الصغر، تركتها لصاحب المطبعة على وعد أن أتسلمها

بعد أسبوع وتركت رقم هاتفي له ومضيت، وبعد يومين اتصل بي صاحب المطبعة وطلب مني الحضور مساء، في الموعد ذهبت فوجدت رجلًا قد تخطى الأربعين من عمره بقليل، طويل ملامحه مميزة وأسمر البشرة، ذو مظهر جاد يجلس إلى جواره فقابلني صاحب المطبعة بابتسامة عريضة لم أفهم معناها وقتها، قال إنه الأستاذ أحمد عبد السلام السينارست المعروف، وكنت حقيقة أجهله ولكني تظاهرت بغير هذا منعًا للإحراج وجلست أمامه، سألت صاحب المطبعة عن سبب دعوتي للحضور فأشار إلى أحمد، وقال إنه صديقه ورأى قصة مما كتبته وقرأ جزءًا منها وأعجبته، ويريد أن يقدمها كعمل درامي يعد له السيناريو والحوار.

في هذه اللحظات لا أستطيع وصف مشاعري كنت أشعر أنني أحلم أو أسبح في الفضاء، شعور غريب.. فرحة وذهول معًا، ولم أستطع تمالك نفسي فانفجرت في الضحك بصوت عالٍ وضحك صاحب المطبعة وابتسم أحمد قليلًا، وبعد عدة لحظات تمالكت نفسي وبدأت أتحدث ببلاهة فقد أربكتني المفاجأة، وبالطبع وافقت وتملكتني رغبة كبيرة في العودة لكتابة القصص وكأن الله أرسل أملًا جديدًا ليخبرني أن الحياة لا تتوقف على رحيل أحد، وأن هناك أشياء أجمل كثيرًا من انتظار شخص رحل بكامل إرادته، أحضرت قلمي ودفتري القديم، وأخذت أقلب في صفحاته فوجدت كلمات كنت قد كتبتها حين رحل عني، وكنت في منتهى الضعف فقرأتها في صمت كأنني أقف حدادًا على قبري لأتذكر سبب وفاتي:

لا تدعي المروءة

أنت سيد الخذلان

تمتطي جوادًا من دخان

تسرق أفكارًا لست تملكها

ولست تعنيها

حروفك رماد تناثر

صوتك يملأني خواء

لا تتقن سوى الفرار

يا سيد الخذلان

لقد فررت من الأحلام

تخذلني كلما ادعيت أنك

سند الأيام

يا سيد الخذلان

اسكنتني واديك ورحلت

فأصبح الوادي بيداء

تبدلت الأشجار أشواك

فأدميت قلبي قبل أقدامي

قرأتها وأنا أسخر من نفسي، كيف كنت بهذا السوء وهو لم يهتم لحزني، وبحثت عنه وأنا أجزم بأن مكروهًا حدث له حتى ساقت لي الأقدار الجواب، فقد قابلته في أحد

الأماكن التي كان يرتادها، ولم يرني وكان جالسًا مع صديقه الوحيد يضحكان، راقبته في صمت حتى اطمأن قلبي أنه بخير، وبدأت رحلتي مع الندم على وقت أضعته وأنا أحاول أن أنسج حوله جنة لم يرها.

أمسكت قلمي وبدأت أكتب، وبدون أن أشعر وجدتني أكتب قصتي معه، وأسرد تفاصيل صغيرة لم أكن أذكرها، كل شيء حتى شكل أنامله، فقد كان يمتلك أنامل فنان لم أغفل عنها، ووجدتني أغرق في بحر الذكريات، كلما كتبت سطرًا أتعمق أكثر في التفاصيل الصغيرة التي كانت تتملكني وقتها، لم أتخيل أني سأكتبها وأنا أعيش وحيدة، لا أعرف شيئًا عنه سوى أنه على قيد الحياة نفسها التي تميتني في البعد عنه.

أنهيت كتابة القصة، وفي خلال هذه الأثناء كان أحمد يتصل بي ليعلمني عن آخر تطورات طرأت بخصوص قصتي الأولى وأخبرته أنني قد كتبت قصة جديدة فطلب مقابلتي ليراها، ذهبت وقابلته وتركتها له ورحلت، وفي صباح اليوم التالي اتصل بي أحمد وقد تغيرت نبرات صوته الجادة بأخرى حزينة حنونة، وسألني هل هي قصة حقيقية؟ فأجبته نعم، فقال وهي قصتك أنتِ أليس كذلك؟ فتعجبت وقلت: كيف عرفت؟!

فقال: هي ليست حروفًا على ورق لقد شعرت بنبضات قلبك، كيف جعلتي الحياة تدب في الحروف فتتحدث وتبكي وتفرح وتحب بكل هذه الدقة، إنها مشاعر رائعة قلما

وجدت بكل هذا الصدق، لم أستطع النوم قبل أن أنهيها، على قدر سعادتي برأيه كان حزني على خاتمة قصتي.

أصر أحمد على أن يأخذ هذه القصة أيضًا، وأخذت العلاقة بيني وبينه تتحول لصداقة وثقة فهو إنسان نبيل صادق، كنت أحيانًا ألمح في عينيه كلامًا لا ينطق به ولكني قرأته جيدًا وكنت دائمة الهروب من تلك النظرات فما زلت كالزجاج المهشم.

بدأت قصتي مع أحمد تزداد تعمقًا، فقد كان يحاول التقرب مني أكثر فأكثر، فبعد أن كانت محادثاته مقتصرة على ما بيننا من عمل أصبحت أستيقظ كل يوم على رسالة منه، وأحيانًا على مكالمة لمجرد أن يقول صباح الخير، ولم أكن أكره ما يفعله ولكني لم أجد في نفسي أي رغبة للاقتراب منه، فإذا لم تصلني رسالته أو أسمع صوته لمدة أيام لم أكن أهتم أو أسأل، فأنا لا زلت أحمل في قلبي وشمًا قديمًا لا يزول مهما حاولت إزالته أو إيهام نفسي بأنني نسيته.

شعر أحمد بهذا الفتور الذي يعتريني وبدأ في الابتعاد، ولم أحاول التعقيب على ذلك، فأنا لا أريد أن يتعلق بوهم كاذب.

وابتعد أحمد كثيرًا ولكنه أراد أن يحاول محاولة أخيرة، فاتصل بي وطلب مقابلتي ولكنني رفضت بحجة انشغالي في بضعة أعمال، فصمت برهة ثم اندفع قائلًا: هل

تقبلين الزواج مني؟ وكانت مفاجأة بالنسبة لي، وعندما وجدني صامتة طلب مني عدم الرد ومحاولة التفكير.

كانت الذكريات تمنعني من الموافقة وتحرضني على الرفض، وفي النهاية امتثلت لها، فقد كانت أقوى من إرادتي وأعنف من الصمود أمامها.

أعطيته قراري فتقبله بابتسامة رقيقة ولم يعقب والتزم الصمت.

وبعد شهر كنت في زيارة إلى صديق في مستشفى القصر العيني قابلته بصحبة فتاة جميلة تمشي بجواره، كانت تتعلق بذراعه وتتحدث وعيناها لا تفارقه، فحاولت أن أتوارى حتى لا يراني ولكن سبق السيف العزل، فقد رآني ونظر إلي جيدًا، وفي خطوات جادة وثابتة أسرع باتجاهي بدون أن يلتفت للفتاة التي معه، وسألني عن سبب وجودي، ونظر فجأة خلفه فوجد الفتاة تنظر إلينا غاضبة فأسرع إليها وتحدث بصوت منخفض، وسرعان ما تغيرت ملامحها وعادت تبتسم من جديد، وجاءت ترحب بي في ود، ولم أكن أفهم ماذا قال لها غير تعبيرات وجهها هكذا، حتى علمت أنها أخته وهي معجبة بقصصي، استفسرت عن سبب تواجدهم، فعلمت أن والدتهم تجري فحوصات طبية وإنهم بانتظارها، وهممت بتركهم ولكن انضمت سيدة لطيفة لنا وهي تبتسم حتى عرفت من أنا فسلمت علي بحرارة، وطلبوا مني مرافقتهم للغداء في مطعم

قريب من المشفى، فلم أستطع الرفض ووافقت وذهبت معهم، وجلسنا معًا وقضيت معهم وقتًا دافئًا كله حب ومرح.

شعرت بأن شيئًا بداخلي بدأ يتغير وأنا أراه يتحدث مع والدته وأخته، فقد وجدت إنسانًا حنونًا رقيق المشاعر، وجدت بجوارهم الأمان الذي أفتقدته.

لم يحاول الاتصال بي ولكني اتصلت بدون قصد وأنا أتفحص رقمه، حبست أنفاسي وبعد أقل من لحظة رد علي أحمد وكأنه ينتظر اتصالي شعرت بسعادته لسماع صوتي، ثم بادرني صوت أخته وأخذت تتحدث بكل حب وترجوني أن أقبل حضور عيد ميلادها بعد يومين، فوافقت وأنا سعيدة جدًا وكانت بداية حياة جديدة كنت أتمناها، انتشلتني من براثن الذكريات.

والآن تأتيني رسالة من الماضي الذي خذلني، ولم يهتم لآلامي فهل أقبله؟ بالطبع لا، ومحوت الرسالة والماضي أيضًا، وبدأت رحلتي مع الحاضر، تعرفت على العديد من الأدباء واقتربت كثيرًا من أحمد وعائلته، نتحدث يوميًا في أمور كثيرة ونذهب معًا إلى معارض الكتب والندوات الأدبية، كان يحب الشعر وكلما سمع بندوة شعرية هاتفني وذهبنا معًا إليها.

وكنت أقرأ له أشعاري البسيطة فأعجبه طريقة إلقائي لها، واقترح علي أن أسجل قصائد الشعراء المبتدئين بصوتي، وفعلًا فعلت ذلك ولاقت قبولًا كبيرًا لديهم، وأصبحت حياتي واحة رائعة من الشعر والأدب وواصلت كتابة الروايات.

وفي يوم وليلة انقلب كل شيء على عقبه، فقد قامت الثورة في البلاد وأصبح السير في الطريق مخاطرة، وساد الهرج والمرج وطلقات النيران لا نعلم أين مصدرها أو لصالح من، وتتضارب الأقوال ما بين مؤيد ورافض، وتوقفت الحياة تمامًا، وكنت ألتزم بيتي بالأيام لا أتحرك من أمام شاشة التليفزيون حتى أنني أصبحت أنام على الأريكة أمامها، لا أتحرك طيلة الليل أو النهار إلا للضرورة، أحاول أن أكتشف ما يجري بعيدًا عن الأحاديث الكثيرة التي تدور، فهناك من يصفها بالمؤامرة، ومن يرى أن ما يحدث هو ثورة شعب على الظلم، وهناك من يؤكد أن المؤامرة هي من صنع المتشددين. وبعد مرور أسبوع على اندلاع الثورة قررت الخروج من البيت لجلب مزيدًا من المؤن وذهبت إلى أحد المحال القريبة فوجدته مغلقًا وقد تعرض للتدمير، فاضطررت إلى الذهاب إلى مكان أبعد، وفي طريقي وجدت مظاهرة كبيرة، وفجأة سمعنا طلقات نارية، لا نعلم من أين تأتي، وفي لحظات تحولت المسيرة إلى يوم الحشر، لا أحد يفكر إلا بالنجاة، أما أنا فقد تسمرت في مكاني ولم أستطع الهروب حتى وجدت من يمسك بيدي ويشدني إلى مدخل عمارة قريبة ليحميني من الطلقات، وعندما وصلنا وجدت حوالي سبعة أشخاص مثلنا يحتمون بمدخل العمارة، وانتظرنا هناك لمدة ساعات ونحن نرى في

الخارج الطلقات، ونرى سيارات البوليس تهاجم من الأفراد الذين يلقون عليها المولوتوف والشرطة تحاول تفريقهم بطلقات الغاز المسيل للدموع، وكنا جميعًا في حالة من الإعياء بسبب استنشاق الغاز، وفيما نحن مختبؤن بالداخل أتى شخصان أحدهما مصاب بطلق ناري بذراعه الأيمن والدماء تغطيها، وأسرع الشخص الذي أتى بي إليها وحاول ربط الجرح حتى توقف النزيف، وبقينا على حالنا حتى هدأت الأحداث قليلًا، وقرر الجميع الرحيل وخرجت معهم، وأنا أتمنى أن أصل بيتي بسلام ونسيت احتياجي لأي شيء.

مشيت في الشوارع الجانبية حتى أتجنب الطرقات الواسعة التي تسير بها المظاهرات، وما إن وصلت إلى بيتي حتى ارتميت على سريري وأنا أرتعد من الرعب، لم أكن أتخيل أنني سأنجو أو أنني سأصل إلى بيتي سالمة.

كانت تمر الدقائق وأنا أنظر إلى التلفزيون ودموعي منهمرة، أسمع الهتاف وأرى الضحايا يتساقطون، وعدت إلى هاتفي الأرضي أحاول أن أطمئن على أحمد وعائلته، فأجابتني والدته وكانت تبكي فقد اختفى أحمد فجأة من ليلة الأمس ولم يعد إلى المنزل، سألتها عن آخر مكان كان يتواجد به، فأخبرتني أنه كان في مستشفى القصر العيني ذهب للبحث عن صديق له أصيب في ميدان التحرير، حاولت تهدئتها بأنه ربما عند أحد أصدقائه؛ فالطرق ليست آمنة وحظر التجول يمنع الكثيرين، وجلست على الأريكة شاردة أفكر فيما قد يكون حدث له، وكلما فكرت بالخروج للبحث عنه

تراجعت من شدة خوفي، وقلت في نفسي ربما عاد بين لحظة وأخرى، ومرت الساعات وأنا أفكر فيه وفي كل الشباب القابع في ميدان التحرير يضحي بحياته من أجل مبدئه أو من أجل الآخرين، أخذت أحدث نفسي طويلًا حتى غرقت في نوم عميق استيقظت بعد ذلك فوجدت الشمس قد أشرقت من ساعات، وكانت الساعة تشير للعاشرة صباحًا فذهبت إلى الهاتف واتصلت بمنزل أحمد مرة أخرى فأجابتني أخته بأنه لم يعد بعد وما زال أصدقاؤه يبحثون عنه في كل مكان ولم يصلوا لأي شيء، فأغلقت الهاتف معها وقررت أن أخرج من خوفي وأذهب للبحث عنه في المستشفى لعلني أعثر على أي خيط يصلني إليه، وارتديت ملابسي ونزلت إلى الشارع وكنت قريبة من المستشفى، وأخذت أسير في الشوارع الجانبية في حذر محاولة الابتعاد عن أماكن المظاهرات حتى وصلت إلى المستشفى، فوجدت الكثير من الهرج والمرج وعربات الإسعاف تسرع بإحضار الجرحى والجميع يتحدث بصوت مرتفع وكثيرًا من مصابي الاختناق، وبعد معاناة تسللت للداخل أبحث عنه في جميع الوجوه التي تقابلني، ودخلت قسم الطوارئ أبحث في وجوه الجرحى ووجوه من أحضروهم، أخذت أبحث كثيرًا حتى يأست من الوصول إليه وجلست في الركن أفكر ماذا أفعل، ووجدت شخصًا يقف أمامي يبكي بشدة أسرعت إليه أواسيه والتفت إلي ووضع رأسه على كتفي وأكمل بكاءه، وأخذت أربت على كتفه حتى هدأ قليلًا، وقال لقد فقدت ابني الوحيد، طلقة خرطوش طائشة انفجرت بصدره بدون أي ذنب، لم أتمالك نفسي وأخذت أبكي معه، فأخذ يواسيني ويهدأ من روعي، وهنا قررت ألّا أعود إلى البيت مرة أخرى، فيجب ألّا

اهتم بأمر أحمد فقط بل أن أذوب مع هذا الشعب الذي وضعته الأقدار بين شقي الرحى.

تركت والد الطفل المسكين وبحثت عن مسؤول في المستشفى وعرّفته بنفسي وعرضت عليه تطوعي للعمل في خدمه المصابين، فأخذني إلى طبيبة حدثية التخرج وطلب منها تعريفي بمبادئ التمريض حتى أستطيع المساعدة، ومنذ ذلك الحين وأنا لم أفكر بالعودة إلى البيت بعد أن قررت أن أكون إيجابية ولا أجلس خلف التلفزيون، كنت أقضي معظم وقتي بقسم الطوارئ لتلقي المصابين، وتعلمت كيفية الإسعافات الأولية وبخاصة لمرضى الاختناقات من قنابل الغاز المسيل للدموع، وكلما استطعت الوصول للهاتف الأرضي كي أسأل عن أحمد، كانت أخته ترد على الهاتف باكية فقد فقدوا الأمل في عودته، حتى اتصلت يومًا فقالت لي إنهم تلقوا هاتفًا من شخص يقول إن أحمد محتجز لدى بعض المجرمين، فقد اختطفوه ويطالبوهم بدفع مبلغ كبير حتى يتركوه؛ فتركت كل شيء وأسرعت بالذهاب إليهم فوجدت والدته منهارة وحالتها الصحية سيئة جدًا.

ذهبت إلى أحد أقاربي يعمل ضابطًا بالشرطة وقصصت عليه ما حدث، فوعدني بالمساعدة وأبلغني أن عددًا من المجرمين الهاربين من السجون في أحداث الشغب استطاعوا تكوين عصابات لخطف المواطنين وطلب مبالغ مالية، وإنهم يتبعون هذه العصابات للقبض عليهم وأوصاني باطلاعه على أي اتصال جديد.

ومرت ثلاثة أيام قضيتها بين المستشفى وبين منزل أحمد أحاول التخفيف عن عائلته، حتى جاءني اتصال من ضابط الشرطة يبشرني أنهم وجدوا أحمد مع شخصين آخرين كانوا محتجزين في منزل مهجور على الطريق الزراعي للإسكندرية، وكانت الشرطة قد تعقبت أحد أفراد العصابة حتى وصلت إليهم، ولكنه مصاب بطلق ناري ويعالج في أحد المستشفيات، وأسرعت إليه فوجدته بحجرة العمليات تُجرى جراحة في ساقه الأيمن بسبب طلق ناري أثناء عملية اقتحام الشرطة، وجلست أمام حجرة العمليات وبعد قليل خرج أحمد وأسرعت بإبلاغ عائلته فحضرت والدته وأخته وجلسنا معه، وكانت دموع الفرح تنهال من والدته وأخته ولم أتمالك نفسي معهم وجلسنا نبكي ونضحك معًا.

شعور رائع هو الفرح بعد الضيق والأمن بعد الخوف، واستمر الحال كما هو حتى هدأت الأحوال واستقرت الحالة الأمنية بالبلد، وعدت إلى منزلي مرة أخرى محملة بالعديد من الروايات ما بين ألم الفراق وفرحة اللقاء، وجلست أكتب كل الأحداث التي مررت بها، وعادت الندوات الأدبية والشعرية مرة أخرى، وعدنا أنا وأحمد نرتادها بشغف، ولم أعد أنا بل أصبحت شخصًا آخر يحمل بين حنايا صدره روايات كثيرة وعذابات أكثر، لقد دب الشيب في قلبي من كثرة المعاناة التي رأيتها ما بين قتلى وجرحى ومصابين بفقد البصر ومفقودين، الجميع تغيرت ملامحهم، اكتست وجوههم بحزن دفين ومرارة لا تزول.

وبعد أعوام مرت بأحداث كثيرة كلما نسيت ما حدث ذكرتني العصا التي ترافق أحمد بالسير جراء إصابة ساقه، كانت أيام عصيبة مرت علينا، ولقد انتهت ولكن آثارها باقية في نفوسنا إلى الأبد.

فاتت سنين

وإحنا في حيرة

واللّه كانت أيام أليمة

جرى ضرب نار كتيرة

ناس بتجري في قلب نار

تقول بتعشق تقول بتهوى

قولي بس فهمت إيه

بوليس تلاقي إخوان تلاقي

شارعنا زحمة متعرفش ليه

فى حب بلدي الكل يهتف

ناس تقولك تحيا بلادي

وناس بإيدها تقتل ولادي

تمت بحمد الله

أميمة عبد العزيز

٢٠٢٠

الفهرس

إهداء ٥

المقدمة ٧

رسالة إلى جبران ٩

قسوة الفراشات ٣٣

رحلة إلى الشمس ٤٧

الخروج من التابوت ٦١

زهور الحب لا تموت ٧٥

نسمات خريفية باردة ٩٥